آيــةٌ وأدَبٌ



د . حمزة بن فايع الفتحي


بسم الله الرحمن الرحيم



المفتاح

الحمدُ للّه، على ما أنعم به من كتابه العظيم، وتنزيله الحكيم، وذكره الكريم، وآي كتابه المستقيم، زخرَ بالآداب، وغص بالمواعظ، وامتلأ بالقصص واللطائف.

والصلاة والسلام على الرسول الكريم، والنبي الجليل، والقائد النبيل، وعلى آله وصحبه أجمعين...

أما بعد:

فيظلُّ القرآنُ منهلَ العلوم، ومنبعَ الفهوم، وكنز الذخائر والمروج، ولا يبرح العقلاءُ عنه تفكرا وتأملا، واستنباطا واستلهامًا، يغرفون من بحره، ويستخرجون درره، وينالون فضله وبركته. وقد وفق الباري تعالى الى شيء من ذلك، ونشرت اليَراعةُ القرآنية رسائل متعددة في هذا الباب.

وها نحن مع فكرة تأليفية قرآنية، تجعلنا نسبح مع بعض معانيه، ونتعلم شيئا من دروسه وآدابه. فقد لاحت له فكرة الأدب القرآني، وكيفية استخراجها وتقديمها للقراء الكرام، وكان قد حاول تدريس أبنائه أدب القرآن عبر (آية وادب) في (جزءً عم) فقط.

ثم انصرف عنه لموضوعات مختلفة.

فنمت الفكرةُ هذه الأيام، فقرر أن يصرفها من خلال سور القرآن كلها (١١٤) سورة يتأملها ويستخرج منها أشهر الدروس، ومن كل سورة درسا مخصوصًا.

بدءًا من « الفاتحة، واختتامًا بالناس» يكون منوالا أدبيًا، يسير في حدائق القرآن ومباهجه . فانتشرت الهمة من البداية، يتتبع سور القرآن، ويتأمل فوائدها، ويتفقه في آدابها، ويستنبط ما تيسر منها. وبالمحصلة سيكون معنا (مائة وأربعة عشر أدبًا)، كما هو عدد سور القرآن . ولا ارتياب أنه أجمل الآداب وأطيبها،

وأجمع المحاسن وأزكاها، لما جعله اللّٰه فيه من معادن البركات، ومَعالِم الثمرات. ومن الضروري لكل مسلم استخراج هذه الفوائد، واستلهام هذه العوائد، وقد تضمنت الآيات أصول الآداب، وأسس الأخلاق، وأعلام الصفات والخصال، وامتدح اللّٰه رسوله بقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) سورة القلم .

فقيل هو الإسلام والدين، حكاه الواحدي عن الأكثرين، وقيل هو القرآن، وقال قتادة رحمه اللّٰه: هو ما كان يأتمر به من أمر اللّٰه وينتهي عنه من نهي اللّٰه، وقيل المعنى إنك على طبع كريم، قال الماوردي : وهذا هو الظاهر وحقيقة الخلق في اللغة ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب.

وفي صحيح مسلم رحمه اللّٰه عن عائشة أنها سئلت عن خلقه، فقالت : « كان خلقه القرآن » أما تقرأ القرآن (إنك لعلى خلق عظيم)..؟!.

وإنـا لنرجو أن تـكون هـذه الآداب حلقات لبعض المجالس والبيوتات، ينهلون منها دقائق معدودات، فيلمون أدباً، ويحرزون خلقا، ويجمعون معلمًا وهدى .

وتكـون سببًا في فقه الـقـرآن وتـدبـره، والعيش مـع هداياته وتوجيهاته، قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا) سورة النساء .

وقال سبحانه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أن على قلوب أقفالها﴾ سورة محمد .

ونعتقد أن تسهيل القرآن بمثل هذه المواعظ القليلة، والآداب السديدة، يخفف على الناس قضية التدبر، والعيش القرآني، ويجعلهم يلامسون أدبه ونهجه ومبتغاه، واللّه الموفق .

وقد قال بعضُ السلف لابنه: «يا بني لأن تتعلمَ بابا من الأدب أحبُّ إليَّ من أن تتعلم سبعين بابا من أبواب العلم» وقال الحسن

البصري رحمه اللّٰه: «إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثم السنتين» .

ونعتقد أن أصول الآداب وجلها في كتاب اللّٰه تعالى، وفي الهدي النبوي، وخليقٌ بمن شُرح اللّٰه صدرَه للعلم، أن يستخرجها ويتخلق لما فيها من جماليات ومحاسن، فلقد ظللنا في حياة عديمة النفع والمحتوى، تفتقر الى كثير من مقومات العيش الكريم، ولا يمكن أن تستصلح الا بالوحي الإلهي، وما احسن قول القائل:

لعمركَ ما ضاقت بلاد بأهلها... ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

فأوسعوا لنا حياةً ماديةً قاتمة، بأخلاق القرآن وآدابه، واستنهضوا عزماتنا بوعي قرآني متين، وهدي إلهي عجيب..

اللهم فقهنا في القرآن، واجعلنا من أهله العاملين المتدبرين، إنك جواد كريم .

٤/٤/١٤٤٤هـ

حقيقة الأدب

كلمة «الأَدَب» في الأصل اللُّغَويِّ مَأخُوذٌ مِن «مَأدُبَة» أيِ: الطَّعام الّذي يُدْعَى إليه الناسُ..

وفي اللسان: الأَدَبُ: الَّذِي يَتَأَدَّبُ بِهِ الأَدِيبُ مِنَ النَّاسِ سُمِّيَ أَدَبًا لأَنَّهُ يَأْدِبُ النَّاسَ إِلَى الْمَحَامِدِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمَقَابِحِ. وَأَصْلُ الأَدْبِ الدُّعَاءُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلصَّنِيعِ يُدْعَى إِلَيْهِ النَّاسُ: مَدْعَاةٌ وَمَأْدُبَةٌ.

والأَدَبُ: أَدَبُ النَّفْسِ وَالدَّرْسِ. وَالأَدَبُ: الظَّرْفُ وَحُسْنُ التَّنَاوُلِ. وَأَدُبَ، بِالضَّمِّ، فَهُوَ أَدِيبٌ، مِنْ قَوْمٍ أُدَبَاءَ. وَأَدَّبَهُ فَتَأَدَّبَ: عَلَّمَهُ، وَاسْتَعْمَلَهُ الزَّجَّاجُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: وَهَذَا مَا أَدَّبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ. وَفُلَانٌ قَدِ اسْتَأْدَبَ: بِمَعْنَى تَأَدَّبَ.

ولِذلكَ كانَ مَعْناهُ فِي الاصْطِلاحِ يشْمَل: التَّثْقِيفَ والتَهْذِيبَ فِي العَقْلِ والشُعُورِ، فَكَمَا أنَّ الطَّعَامَ يُغذِّي الأَبْدانَ؛ فإنَّ الأَدَبَ يُغذِّي الوِجْدانَ.

يقول بعض الباحثين:

أطلق الأدب فى بادىء الأمر على ما أُثر عن العرب من فنون القول النثرى والشعرى وكل ما نتج عن القرائح.

وقد ظهرت بعض الكتب تحمل هذه الدلالة فى عناوينها مثل: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الأدب فى صحيح البخارى وغيرهما كثير.

والعلاقة بين المعنى اللغوى «الدعوة إلى الطعام» والمعنى الاصطلاحى «فنون القول» أن الأول غذاء للجسم، والثانى: غذاء للعقل والروح.

وفى العصر الحديث قصرت كلمة «الأدب» على الكلام الإنشائى البليغ الذى يحمل الكثير من الأخيلة والتصويرات والإيحاءات وكان قبل ذلك يطلق على كل ما تنتجه القرائح على نحو ما يطلق عليه الأروبيون الآن فيشمل فنون القول جميعا، الخيالى والعقلى كالتاريخ والفلسفة والرواية والقصيد.

والإنسانُ مَهْمَا بَلَغَ في العِلْمِ، إذَا لَمْ يَتعلّم الأدَب، سيَبقَى ناقِصًا
ومن نعمة اللّه علينا نعمة العلوم والمعارف، والحكم والأشعار، وتجارب الأمم وثقافاتهم! وفي الوحي الرباني آداب وأخلاق يعِز مثيلها، ولا زلنا ننهل منها ونستفيد .

وهو ما سنركز عليه هنا .

قال الشافعي مبينا عظمة اللغة وفنونها على الذات والشخصية:
(مَن نظَرَ في العرَبيَّةِ وحَفِظَ الشِعْر؛ رَقَّ طَبْعُه).

وقال ابن القيم في المدارج :

وهذه اللّفظة مُؤذِنةٌ بالاجتماع، فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة، وهو الطّعام الذي يُجمع عليه النّاس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللِّسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبةٌ من الأدب العامِّ.

والأدب ثلاثة أنواعٍ: أدبٌ مع اللّه، وأدبٌ مع رسوله وشرعه وأدبٌ مع خَلْقه.

فالأدب مع اللّه ثلاثة أنواعٍ:

أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصةٍ.

الثّاني: صيانة قلبك أن يلتفت إلى غيره.

الثّالث: صيانة إرادتك أن تتعلّق بما يَمْقُتك عليه.

قال أبو عليٍّ الدّقّاق - رحمه اللّه -: العبد يصل بطاعة اللّه إلى الجنّة، ويصل بأدبه في طاعته إلى اللّه

وقال: رأيت من أراد يَمُدّ يده في الصّلاة إلى أنفِه فقبضَ على يده.

وقال ابن عطاءٍ - رحمه اللّه -: الأدب الوقوف مع المستحسنات.

فقيل: وما معناه؟ فقال: أن تعاملَ اللّه بالأدب سرًّا وعلنًا.

ثمّ أنشد:

إذا نَطقتْ جاءتْ بكلِّ مَلاحةٍ	وإن سكتَتْ جاءت بكلِّ مَليحِ

وقال أبو عليٍّ - رحمه اللّه -: مَن صاحبَ الملوكَ بغير أدبٍ أسلمه الجهل إلى القتل.

وقال يحيى بن معاذٍ – رحمه اللّه –: إذا ترك العارف أدبَه مع معروفه، فقد هلك مع الهالكين .

وقد عظم الأسلاف شأن الأدبِ، واعتبروه أصلا في النفس وتربيتها، وفي العلمُ وجمعه، وفي الحياة وتعاملاتها .

يقول عبد اللّه إبن مسعود رضي اللّه عنه: «اعلموا أن حسن الهدي في آخر الزمان، خير من بعض العمل».

وقال عمر رضي اللّه عنه» تأدّبوا ثم تعلّموا».

وقال النخعي: كان العلماء إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه (الحديث الشريف والعلم)، نظروا أوّلا إلى سمته وصلاته، وإلى حاله.. ثم يأخذون عنه.

وقال البلخي : (أدبُ العلم أكثر من العلم) .

وقال عبد اللّه بن المبارك : (لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزيّن علمه بالأدب) .

وله أيضًا رحمه اللّٰه : (طلبت الأدب ثلاثين سنة وطلبت العلم عشرين سنة وكانوا يطلبون الأدب قبل العلم).

وعنايتنا هنا بمستخلصات آداب القرآن وأخلاقه وتعاليمه، مما يطلب به المسلم ويندب إليه على وجه الفضل أو السنية، أو الإلزام والتشريع، ولذلك قد تتنوع هنا ظهورا وخفاءً، وتصريحا وتلميحًا، لنصيبَ غايتنا ومنهجنا في حقيقة الأدب القرآني ..

فالأدب القرآني : هو كل ما حملنا القرآن على التخلق به نهجًا آو تعاملًا، على وجه الاستحباب أو الحتمية واللزوم، أو التعريض والمخالفة .

١ - طلب الهداية..!

كلنا محتاجون إلى الهداية، ومفتقرون إلى أنوارها، ومضطرون لها، فلا قيامَ لنا إلا بها، ولا استقرار واطمئنان بدون وجودها..! نرجوها رجاء العاقل اللاهث، ونسألها سؤالَ المظطر المنكوب، الذي لو تأخرت عنهم لساءت أحوالهم ..

(اهدنا الصراط المستقيم) . ومتعين علينا تردادها في كل صلاة، لا في كل ركعة، فتعلمنا التوحيد والافتقار، والإيمان والاعتماد .

قال ابن القيم رحمه اللّه : قوله: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يتضمنُ طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده وإن شاء منعه إياها . والهداية معرفة الحق والعمل به فمن لم يجعله اللّه تعالى عالما بالحق عاملا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء، فهو سبحانه المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي

لا يتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدا للهدى محبا له مؤثرا له عاملا به،؟ فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ ولَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشاءُ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد وهي التي هدي بها ثمود فاستحبوا العمى عليها وهي التي قال تعالى فيها: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَداهم حَتّى يُبَيِّنَ لَهم ما يَتَّقُون﴾.

وفي صحيح مسلم: (يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديتُه، فاستهدوني أهدِكم).

والمعنى: كلكم مُبتعِدٌ عن طَريقِ الهُدى والنور، وفي منأى عن كل سعادة دِينيَّةٍ ودُنيويَّةٍ، «إلَّا مَن هديْتُه» وألهمته الطريق، وظاهرُ هذا أنَّهم خُلِقوا على الضَّلالِ إلَّا مَن هَداهُ اللّه تعالَى، ووفقه لأسبابها، وهذا يَقتضِي أنَّ جميعَ الخلقِ مُفْتقِرونَ إلى اللّهِ تعالَى في جلْبِ

مَصالِحهم ودفْعِ مَضارِّهم في أُمورِ دِينِهم ودُنياهم، وأنَّ العِبادَ لا يَملِكونَ لِأنفُسِهم شيئًا مِن ذلك كلِّه، ولذلك دائما تعلق باللّه، ولذ به طالبا الهدايةَ والفتح والتوفيق.

واللّه تعالى أعلم.

٢ - التطبيق السلوكي..!

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (البقرة ٤٤)

تقريع وتوبيخ لكل متدين وعالمٍ او واعظ وناصح، يقول الخيرَ ولا يطبق ذلك على نفسه، ويخطب وأفعاله في واد آخر، وحمل العلوم، ولا تُرى عليه . وتحدث في الفضائل وليس من طلابها..؟! أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم..؟! فذلك ما لايصح ولا يليق..!! لا سيما وأنتم تالون كتاب الله، وتحفظون الآيات، وتزعمون الصلاح والرشاد ...!

فلنحذر جميعا ذلك المسلك، ونتادب بالأدب الحق، وهو اقتضاء العلم العمل، والانضباط السلوكي، وأن لا نخالف أقوالنا بسيئ أعمالنا...! كما قال سبحانه في سورة الصف: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. وهي وإن كانتا

نازلة في أهل الكتاب، إلا أنها عامة، صالحة لكل ذي علم مقصر، او صاحب فقه مخالف ومراوغ، وإنما تصدق كلمة العلماء بحسن عملهم وتطبيقهم علومهم..!

وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال سمعت رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - يقول: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه.

ويُروى في بعض الأخبارالحسنة لفظًا ومعنى: (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرقُ نفسَه).

٣ - الإنفاقُ المختلف..!

جوادٌ على كل حال، ومنفق في شتى الظروف، مؤمن بربه، وواثقٌ بموعوده، وشاعر بإخوانه وحاجاتهم، كما قال في صفة هؤلاء الفاضلة :

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران ١٣٤).

فهذا وصف جميل في الانتصار على النفس وحب المال..! تخيل وأنت في خضم محنة وضراء، وقلة ذات اليد، تحملك التقوى على الجود ولو كان يسيرا، والنفقة ولو كانت هينة، فتغلب حظوظ ذاتك، وتتطلع إلى ما عند الباري تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ..﴾.

فجد ولا تبالي بنفس تعلقت بالمال، وأطعم من حولك في كل الظروف سراء أَو ضراء، خيرًا أو شرًا..! والمعنى أفضل هؤلاء

المسارعين، لا يتركون الإنفاق في كلتي الحالتين في الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا في حال الفرح والسرور، ولا في حال محنة وبلاء، سواء كان الواحد منهم في عرس أو حبس، فأول ما ذكر اللّه من أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لأنه أشق على النفوس، وشديد على الأموال، والذهن في غمة الفقر والعوز، ومع ذلك لا يتقاعسون، ويترفعون عن خصال البخل والإمساك...!

وفي ذلك تأديب للنفس وحمل لها على مكارم الأخلاق، وشعور رفيع بإخوانه المسلمين، وتهمم لحوائجهم، وقضاء لشؤونهم، وفوز من أفوازٍ سامية، أعدت للأسخياء الباذلين، ففي الصحيحين: وعن أبي هُريرة رضي اللّه عنه: قالَ رَسُول اللّٰه صلى اللّه عليه وسلم: مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا متفقٌ عَلَيْهِ.

٤- العشرة الطيبة..!

﴿وعاشِرُوهُنّ بِالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء ١٩).

لا تصلحُ الحياةُ الزوجية إلا بطيب ومعروف، ومودة وإحسان، كما قال اللّه تعالى في آية العضل والمنع : ﴿وعاشِرُوهُنّ بِالمَعْرُوفِ﴾. يشمل كل معاشرة قولية وفعلية، أَيْ: طيِّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ، وحَسّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَهَيْئَاتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ، كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا، فَافْعَلْ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الْبَقَرَةِ:٢٢٨) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُم لأَهْلِي».

وما دبت المشاكلُ، ولا اتسعت الخلافات الزوجية إلا بسبب انعدام المعروف الزوجي، وهجران الهدي النبوي في ذلك. وَكَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ أَنَّهُ جَمِيل العِشْرَة دَائِمُ البِشْرِ، يُداعِبُ أهلَه، ويَتَلَطَّفُ بِهِمْ،

ويُوسِّعُهُم نَفَقَته، ويُضاحِك نساءَه، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِك. قَالَتْ: سَابَقَنِي رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَبَقْتُهُ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أحملَ اللَّحْمَ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حملتُ اللحمَ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: «هذِه بتِلْك». وَيَجْتَمِعُ نِسَاؤُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَبِيتُ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ الْعَشَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، ثُمَّ تَنْصَرِفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنْزِلِهَا.

وَكَانَ يَنَامُ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ، يَضَعُ عَنْ كَتِفَيْهِ الرِّداء وَيَنَامُ بِالْإِزَارِ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ يَسْمُر مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ، يُؤانسهم بِذَلِكَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الْأَحْزَابِ: ٢١).

فلنتعلم من هذه القدوة الخالدة، ولنحمل خصالها في حياتنا وبين ظهرانينا، ونصبغ على بيوتنا أنوار الحب والمؤانسة، والله الموفق.

٥- المدامعُ الفائضة..!

أدب عظيم تجاه الآيات، وحين سماع المواعظ المؤثرة، والبينات الساطعة، وفي الصلة الحقيقية بكتاب اللّه، هو التأثر والتعظيم، كما حصل لبعض الأقوام، يقول تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة: ٨٣).

أي تمتلئ فتفيض لأن الفيض لا يكون إلا بعد الامتلاء جعل الأعين تفيض والفائض إنما هو الدمع قصداً للمبالغة كقولهم دمعت عينه،، قيلت نزلت في النجاشي وأصحابه. وقيل وفد آخر، أو أناسٌ كان هذا صفتهم تجاه كتاب اللّه.

والسبب وعي هذه الآيات، والإصغاء لها بمصداقية، وتوفير ما احتوت عليه من الحقائق والأنوار..!

وما أحوجنا جميعا إلى هذه الصفة، فقد قست القلوب، واشتدت الغفلة، ودهمتنا الدنيا من كل الأنحاء، ولم نقدم دواءً لذلك، وفاتنا

الشعور المتين تجاه دروس القرآن وعظاته، وقد قال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللّه وما نزل من الحق﴾ سورة الحديد.

فقد حان الوقت، وطال الانتظار، وعظم التفلت، ولم يبق إلا زجرُ النفس ومجاهدتها، حتى تفيض الدموع، وتنهمر العبرات...!

وفيض الدمع من أسباب رحمة اللّه والانتفاع بالآيات ورقّة القلب، ودخول جنات النعيم، قال في الحديث الصحيح: (عَينانِ لا تمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللّهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللّهِ رواه الترمذي. وصحّ حديثُ ابن مسعود في قراءة رسول اللّه عليه وفيه: (فإذا عيناه تذرفان). أي تدمعان.

كما في الصحيحين المقدمين.[1]

وهذا هو ديدن السلف مع القرآن غالبًا، كان ابن عمر رضي اللّه عنهما إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

(١) البخاري (٤٥٨٢) مسلم (٨٠٠).

﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد: ١٦) بكى حتى يبلَّ لحيته من البكاء، ويقول : بلى يا رب .

وهذه عائشة رضي اللّه عنها قرأ عليها مسروق رحمه اللّه: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٧) فبكت، وقالت: «رب منَّ وقني عذاب السموم» .

وقرأ تميم الداري رضي اللّه عنه ليلة قوله تعالى : «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (الجاثية: ٢١) فصار يُردِّدها ويبكي حتى الصباح . وعن عروة بن الزبير رحمه اللّه قال: قلت لجدتي أسماء كيف كان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا سمعوا القرآن ؟

قالت: «تدمعُ عيونهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم اللّه».. اللهم أصلح فساد قلوبنا .

٦- العدلُ في كل الظروف..!

ما أجملَ اتخاذَ العدل شعارًا في كل أحوالك، قولا وعملا وسلوكا، فلا تظلم أحدا، ولا تبغي على طائفة، وإسلامنا دين العدل، ومنهج القسط، والرحمة بالناس، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٢).

من جملة وصايا معدودة، وصاهم المولى الكريم بالعدل في كل الظروف، وجعله مطيةً على كل الأحوال، والحكم به ولو على أنفسكم أو قرابتكم.. (وإذا قلتم فاعدلوا..). بقول في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل، (فاعدلوا) فيه، وتحروا الصواب ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ولا على بعيد، أو مخالف ولا تميلوا إلى صديق ولا على عدو، بل سووا بين الناس فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به.. ولو كان على أقاربكم.. ومثل هذه الآية قوله: (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين).

ومثلها قوله تعالى : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا..﴾ سورة المائدة. فالعدل قيمة عالمية جاء بها الإسلام، لا يستقيم العالم إلا بها، ولا تصلح شؤون الناس إلا بتطبيقها، وإذا انخرمت تعس الناس، وشقيت الحياة، وفسدت الأحوال، واكل القويّ الضعيف...!

وفي رواية النسائي في حديث عبادة بن الصامت رضي اللّه عنه المشهور : «وعلى أن نقول بالعدل أين كنَّا، لا نخاف في اللّه لومة لائم».

وقال عليه الصلاة والسلام: (إنَّ المقسطين يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا) رواه مسلم في صحيحه .

وفي تطبيق العدل ونسجه في أخلاقنا سبب لمحبة الإسلام، والدخول فيه، لأنه خصلة جاذبة، وفضيلة آسرة، وكم تسلم طوايف

هذه الأيام بسبب العدالة الإسلامية، وتقديمها للناسِ في شكل باهر، ومواقف محمودة، والحمد للّٰه على نعمة الهداية وفشو الخيرات، وتوقير الآخرين..! واللّٰه الموفق.

٧- القول بلا علم..!

عود نفسك أن لا تقول بلا علم، ولا تفتي بلا رصيد، ولا تتحدث بلا دراية، لا سيما على اللّه، وتوقع في شريعته ما ليس منها، فذلك من أعظمِ البغي والبهتان، وقد قرنه اللّه بالعظائم الموبقة، قال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٣).

فيدخل في ذلك الفتاوى المكذوبة، والتحليلات الباطلة، والدعاوى المزورة، قال ابن القيم رحمه اللّه: «فَرَتَّبَ المُحَرَّماتِ أرْبَعَ مَراتِبَ، وبَدَأ بِأسْهَلِها وهو الفَواحِشُ، ثُمَّ ثَنّى بِما هو أشَدُّ تَحْرِيمًا مِنهُ وهو الإثْمُ والظُّلْمُ، ثُمَّ ثَلَّثَ بِما هو أعْظَمُ تَحْرِيمًا مِنهُما وهو الشِّرْكُ بِهِ

سُبْحانَهُ، ثُمَّ رَبَّعَ بِما هو أشَدُّ تَحْرِيمًا مِن ذَلِكَ كُلِّهِ وهو القَوْلُ عَلَيْهِ بِلا عِلْمٍ، وهَذا يَعُمُّ القَوْلَ عَلَيْهِ سُبْحانَهُ بِلا عِلْمٍ فِي أسْمائِهِ وصِفاتِهِ وأفْعالِهِ وفِي دِينِهِ وشَرْعِهِ...!

وقالَ تَعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذا حَلالٌ وهَذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلى اللَّهِ الكَذِبَ إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلى اللَّهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ولَهم عَذابٌ ألِيمٌ﴾ (النحل: ١١٧) فَتَقَدَّمَ إلَيْهِمْ سُبْحانَهُ بِالوَعِيدِ عَلى الكَذِبِ عَلَيْهِ فِي أحْكامِهِ، وقَوْلِهِمْ لِما لَمْ يُحَرِّمْهُ: هَذا حَرامٌ، ولِما لَمْ يَحِلَّهُ: هَذا حَلالٌ، وهَذا بَيانٌ مِنهُ سُبْحانَهُ أنَّهُ لا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أنْ يَقُولَ: هَذا حَلالٌ وهَذا حَرامٌ إلّا بِما عَلِمَ أنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ أحَلَّهُ وحَرَّمَهُ.

وَقالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِيَتَّقِ أحَدُكم أنْ يَقُولَ: أحَلَّ اللَّهُ كَذا، وحَرَّمَ كَذا، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْت، لَمْ أُحِلَّ كَذا، ولَمْ أُحَرِّمْ كَذا؛ فَلا يَنْبَغِي

أنْ يَقُولَ لِما لا يَعْلَمُ وُرُودَ الوَحْيِ المُبِينِ بِتَحْلِيلِهِ وتَحْرِيمِهِ أحَلَّهُ اللّٰه ورَحِمَهُ اللّٰه لِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ أوْ بِالتَّأْوِيلِ».

ومع اتساع وسائل الإعلام هذه الأيام وتنوعها ظهرت الأكاذيب، واشتعلت الأقاويلُ الباطلة على اللّه وشرعه، وحصحصَ أدعياءُ العلم، وبانت صفاتهم، وقلت مخافةُ اللّه في قلوبهم، فوجب الحذر منهم، وتحذير الناشئة من شرهم، وأخذ العلم من مصادره، وتركهم في ظلماتهم يعمهون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل .

٨- خوف الفتنة والعذاب..!

الشُّرور والمناكر آفات مدمرة، ومسببة لكوارث مختلفة، وتمس الناس في أرزاقهم ومعاشهم، ولذلك لا يجوز السكوت عليها مع القدرة، بل الواجب إنكارها ونصح أهلها، وتذكيرهم باللّٰه العظيم وبعقابه الشديد، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

فقد أَمَرَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يُقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ فَيَعُمَّهُمُ اللّٰهُ بِالْعَذَابِ، فالفتنة هنا عذاب ماحق، يصيبهم في ذواتهم أو في أرزاقهم. ويروى عَنْ حُذَيفة بْنِ الْيَمَانِ رضي اللّٰه عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللّٰهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقابا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لتَدعُنّه فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ» .

وفي هذا دليلٌ على وجوب الأمر والنهي، وتناصح المسلمين، وزجر الفساق، وتحذيرهم لعنة اللّٰه، وأن المعاصي الفاشية سببٌ في المحق والنقص والبليات..! فلا أقلَّ من الإنكار القلبي وهجرها، وعدم الرضا بها، لأنها سببُ المغضبةِ الإلهية، ونزول القوارع والعذابات، واللّٰه المستعان .

٩- الولاية الإيمانية..!

إنما نقوى وننتصر إذا حققنا تلكمُ الولاية لأهل الإيمان، تراحماً وتعاطفًا واتحادا، فيوالي بعضهم بعضًا، فيشتد البنيان، ويفكك الطغيان، كما قال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة ٧١).

أي قلوبهم متحدة في التوادد والتحابب، واتفاق الكلمة والعون والنصر، بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله وشريعته. قال ابن عباس رضي الله عنه: آخاهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية له، فظهر الفرق بين الفريقين.

ثم بين أوصافهم الحميدة كما بين أوصاف من قبلهم من المنافقين

فقال: (يأمرون بالمعروف) أي بما هو معروف في الشرع غير منكر، ومن ذلك توحيد اللّٰه سبحانه وترك عبادة غيره، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة والزكاة وطاعة اللّٰه ورسوله..! . فعلى المؤمن حفظ هذه الولاية وتحقيقها قولًا وعملًا، وَفِي الصَّحِيحِ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سائر الجسد بالحمى والسهر».

وتأمل في المؤمنين قال «أولياء» وفي المنافقين قال : «بعضهم من بعض»، وفي ذلك فرق صريح بين التوالي والتعاضد فهو في حق المؤمنين قوي متين، تضمه عقيدة ومصداقية وإقدام، بخلاف المنافقين تجمعهم المصالح والمظاهر، وتكشفهم المواقف، وتعري جبنهم وهلعهم، لأن ولايتهم لبعض ليست محكمة كأهل الإسلام، ولله الحمد والمنة .

١٠ - الفرحُ الحقيقي..!

إنمـا يكتمل الـفـرح وتتم الـسـعـادة بمصدر الـفـرح الحقيقي، وبحدائق السعادة التامة، والتي مكونها القرآن والذكر، وفضل اللّه ورحمته، الكائنة في شرعه وهدايته، كما قال تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس ٥٧-٥٨) .

أي فَلْيَفْرَحُوا غاية الفرح، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ: مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الذَّاهِبَةِ، والمتع الزائفة البالية، والأموال المتجمعة الغالية..!

لأنها لا تحقق سعادة أبدية، ولا تفيضُ سروار بالغاً، بل متعة محددةً، وسعادةً منقوصة..! ولكن الفرح الحقيقي، والسعادة

الكاملة في الدين والقرآن، وفي الهدى والبيان. فهو موعظة وشفاء، وهدى ورحمة، وهي مقاصد البشر في هذا الوجود .

فالقرآنُ موعظةٌ للعالمين، أيّ تَزْكِيَةٌ لِنُفُوسِكم بِالوَعْدِ والوَعِيدِ، والإنْـذارِ والـبِشـارَةِ، والـزَّجْـرِ عَـنِ الـذُّنُـوبِ المُـوَرِّطَـةِ في العِقابِ، والتَّحْرِيضِ عَلى الأعْمالِ المُوجِبَةِ لِلثَّوابِ، لِتَعْمَلُوا عَلى الخَوْفِ والرَّجاءِ ﴿وشِفاءٌ لِما في الصُّدُورِ﴾ أيِ القُلُوبِ مِن أمْراضِها، وقارئه يحس ذلك ويعيشه، وكل من عمل به ذاق حلاوة ذلك واستطعمه، ونال ثماره.

قال ابن القيم رحمه الله: « وَقَدْ دارَتْ أقْوالُ السَّلَفِ عَلى أنَّ فَضْلَ اللَّهِ ورَحْمَتَهُ هي الإسْلامُ والسُّنَّةُ وعَلى حَسَبِ حَياةِ القَلْبِ يَكُونُ فَرَحُهُ بِهِما، وكُلَّما كانَ أرْسَخَ فِيهِما كانَ قَلْبُهُ أشَدَّ فَرَحًا حَتّى إنَّ القَلْبَ لَيَرْقُصُ فَرَحا إذا باشَرَ رُوحَ السُّنَّةِ أحْزَنَ ما يَكُونُ النّاسُ، وهو مُمْتَلِئٌ أمْنًا أخْوَفَ ما يَكُونُ النّاسُ.

فَإنَّ السُّنَّةَ حِصْنُ اللّٰهِ الحَصِينُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كانَ مِنَ الآمِنِينَ.

وبابُهُ الأعْظَمُ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كانَ إلَيْهِ مِنَ الواصِلِينَ تَقُومُ بِأهْلِها وإنْ قَعَدَتْ بِهِمْ أعْمالُهم ويَسْعى نُورُها بَيْنَ أيْدِيهِمْ إذا طُفِئَتْ لِأهْلِ « البِدَعِ والنِّفاقِ أنْوارُهم »، وأهْلُ السُّنَّةِ: هُمُ المُبْيَضَّةُ وُجُوهُهم إذا اسْوَدَّتْ وُجُوهُ أهْلِ البِدْعَةِ، قالَ اللّٰه تَعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران: ١٠٦)، قالَ ابْنُ عَبّاسٍ: تَبْيَضُّ وُجُوهُ أهْلِ السُّنَّةِ والِائْتِلافِ وتَسْوَدُّ وُجُوهُ أهْلِ البِدْعَةِ والتَّفَرُّقِ».

وكل ما أحسست بنصب وضائقة، عد إلى الفرح الحقيقي، واستطعم حلاوته، وأدم تلاوته، واجعله كالطعام والشراب، لتسلم المتاعبَ والشقاوات، والحمد للّٰه الذي بنعمته تتمّ الصالحات .

١١ - المائدة السريعة ..!

كذا فليكن الإكرام، وهكذا تكون المروءة، إسراع وفضل، ومبادرة واهتمام، وترحيب وإطعام، فلنتعلم من سيدنا إبراهيم عليه السلام، اول من أكرم الضيفان، وبذل الخير والإحسان، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود : ٦٩).

وفي موضع قرآني آخر وصفه (بعجل سمين)سورةُ الذاريات . فهو محنوذ سمين . أَيّ: ذَهَبَ سَرِيعًا، فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ والحفاوة، بعجل: وهو فتى البقر، حَنِيذ: وَهُوَ مَشْوِي شَيًّا نَاضِجًا عَلَى الرَّضْف، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمُحْمَاة. وفي ذلك من الاهتمام والمكارم ما لا يخفى .

ولكن خفي عليه أنهم ملائكة مرسلون، وليس لهم في ذلك شهوة ولا حاجة ..! ولكنه فاز بشرف الضيافة .

ومـن صـفـات أهـل الإسـلام الـكـرم والـسـخـاء، ونـبـذ البخل والجفاوة، وقد تعلمنا ذلك من القرآن والسنن، وهدي المرسلين، وفي سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، روائع من الكرم، ومعالي من الجود والإفضال، فهو سيدُ الكرماء، ورأس الاجواد عليه الصلاةُ والسلام، يتفضل بلا منة، ويغطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يقول : (إن اللّه كريم يحب الكرماء، جوادٌ يحبٌّ الجودة...).

وفي صحيح مسلم رحمه اللّه عن موسى بن أنسٍ، عن أبيه، قال: (ما سُئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الإسلام شيئًا إلَّا أعطاه، قال: فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإنَّ محمَّدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة).

وكل من تحلى بالفقر شان نفسه ودينه، وحُرم الفضائل والمكانة بين الناس، واستوجب الذم والحرمان، يقول بعضهم :

ذريني فإنَّ البخلَ يا أُمَّ هيثم	لصالح أخلاقِ الرجالِ سروقُ
لعمرُك ما ضاقتْ بلادٌ بأهلِها	ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

وفي الجود مروءة ولذة وسعادة يتطلبها نبلاء القوم، ويتنافسون فيها، وقد لا يعيها البخلاء، نعوذ بالله من البخل والجبن، والله المستعان .

١٢ - حُسنُ المعاتبة ..!

كثيرةٌ هي خلافاتنا، وشديدة تلك النزاعات، التي تفسد العلائق، وتقطع الأواصر، وتذهب التواد...! ومن المؤسف حدوثها بين أقارب وجيران، لم تُرعَ فيها الحرم، ولا صينت فيها الذمم...!

ولكن مهما حصل فاصلح خير، والمروءة تقتضي الصفح والتسامح، وإذا حصل ذلك طويت المحاسبة، والتمست المعاذير الحسنة كما صنع الصديق يوسف عليه السلام..!

قال تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

فقد مكرَ به إخوتُه، وكادوا له الكيدَ المتين، ثم نصره الله عليهم، فلما اجتمع بهم التمس أطيبَ الكلام، وأحسن العتاب، وقال: ﴿وَجَآءَ

بِكم مِنَ البَدْوِ﴾ ولَمْ يَقُلْ: رَفَعَ عَنْكم جُهْدَ الجُوعِ والحاجَةَ. أدَبًا مَعَهم... وقال: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني...﴾.

فقد نزههم، وتجاوز فترة الجُب ولم يذكرها، ، ونسبَ يوسف عليه السلام ذنب إخوته للشيطان وخبثه، تكرماً منه وتأدبا، ولم يخجلهم أو يحرجهم، وهذا أدب جمّ يحتاجه أكثرنا...!!

فإذا اجتمعت القلوب، وزانت الأمور، لم يُدقق في المحاسبة، وتُخيرت أفضل العبارات حفاظًا على التقارب، وتحقيقا للمصالحة، ودرءا للشيطان ووساوسه، وجئ بالألفاظ الطيبة، والكلمات النزيهة، والنبيل هنا المسامح الخلوق ..(وما زاد اللّه عبدا بعفوٍ إلا عزاً).. واللّه الموفق .

١٣ - العلمُ المضئ..!

كلما تعلم المرء ازداد نورا، واستنارت بصيرته، وفقه الحياة، وسار الى اللّه على بصيرة.. خلافًا للجاهل فهو أعمى الطريق والغاية والهدف، وهكذا يصور القرآن فضلُ العلم، وأنه منائر لا حد لها، وسرج ساطعة...!

قال تعالى : ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الرعد: ١٩).

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الَّذِي ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هوَ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أَيِ: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى، منزوع الهداية، لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ، وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ (الْحَشْرِ: ٢٠).

وفي هذا دليلٌ على أن العلم نور وهاج، والجهل عمى متخبط، لا يعرف صاحبه طريقه، ولا يميز هدفه، يمشي مشي العميان، يلتمسُ السبيل، ولا سبيل لمن نُزع نوره، واختفت منارته، وصار يمشي بلا مصابيح مضيئة، أو دلائلَ مهدية...!

وفي علم الكتاب والسنة موارد النور، ومَعالِمُ البصيرة، التي تضئ الوجود، وتصلح الحياة، وتكشف التخبطات، وتزيل الحيرات والشقاوات...! فلا أجملَ من العلم، ولا أهدى من الفقه، تستنير به العقول، وتنشرح النفوس، يقول الحسن البصري رحمه الله : (لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم). وله أيضًا رحمه الله: (الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء). فاستنيروا بمعالمها، وانتفعوا بسرجها، وعيشوا حلواءها وجمالها، والله الموفق .

جعلنا الله واياكم من مرتاديها، المنتفعين بها، والسلام .

١٤ - المؤمن الشاكر ..!

قد نُسلبُ النعمُ ولا نشعر، ونُحرم البركات ولا نبالي..،! والسبب نقصانُ الشكر أو خفاؤه أحيانا ..! فليُعلم يا إخوة أن ضمانَ النعم، وقيدَ ثباتها، وعنوان حفظها وتوفيرها، هو شكر اللّٰه المسدي بها تبارك وتعالى، كما قال سبحانه:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧). أَيْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْهَا، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ: كَفَرْتُمُ النِّعَمَ وَسَتَرْتُمُوهَا وَجَحَدْتُمُوهَا، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وَذَلِكَ بِسَلْبِهَا عَنْهُمْ، وَعِقَابِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

وكان من دعائه صلى اللّٰه عليه وسلم:(اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). قال ابن القيم رحمه اللّٰه :» حَقِيقَتُهُ فِي

الْعُبُودِيَّةِ. هو ظُهُورُ أَثَرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ: ثَنَاءً وَاعْتِرَافًا. وَعَلَى قَلْبِهِ: شُهُودًا وَمَحَبَّةً. وَعَلَى جَوَارِحِهِ:انْقِيَادًا وَطَاعَةً.

والشكرُ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ. وَحُبُّهُ لَهُ. وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ. وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا. وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ.

فَهَذِهِ الْخَمْسُ: هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ. وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا. فَمَتَى عُدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةٌ: اخْتَلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قَاعِدَةٌ.

فقيدوا يا مسلمون النعمَ بشكرها، والاعتراف بواهبها، وإياكم والجحود والنكران، عن سعد بن مسعود الثقفي قال : « إنما سمي نوح عليه السلام عبدا شكورا لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما إلا حمد اللّٰه تعالى». وكان مخلد بن حسين يقول كان يقال: « الشكر ترك المعاصي» . وقال أبو حازم : «كل نعمة لا تقرب من اللّٰه فهي بلية» .

١٥ - الليونةُ الجاذبة ..!

غالب من يلتقي به يحبه ويألفه، ويرتاح به ويانسه.. والسببُ لطفه ولينه، وخلقه العابق الذي يشع طيبًا وحسنا وتواضعا، فلا يعرف بالعنف، ولا الغلظة البالغة، ولا التنفير الصاخب، كما قال تعالى في صفة رسوله عليه الصلاةُ والسلام : ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أزْواجًا مِنهم ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ واخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨).

وهذا الخفضُ عاقبته المحبة والتأثير، والجاذبية والاحتواء، فهي صفة الأنبياء، وطريقة الدعاةِ والمصلحين، يخسر الوعاةُ بفقدها أثمانًا باهضة من القبول الدعوي، ولذلك كانت سمةً عليا في الخطاب وفي حملته ومحبيه، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وليس في ذلك اللين مهانة لانه ليس اضطرارا، انما هو اختيار وارتفاع .

يقول العلامة ابن القيم رحمه اللّه: « والفرقُ بين التواضع والمهانة : أن التواضعَ يتولد من بين العلم باللّه سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عمله وآفاتها، من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب للّه وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلا، ولا يرى له عند أحد حقا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلقٌ إنما يعطيه اللّه عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل في نيل شهواتهم وتواضع المفعول

به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعةٌ لا تواضع، واللّٰه سبحانه يحب التواضع، ويبغضُ الضعة والمهانة: وفي الصحيح عنه صلى اللّٰه عليه وآله وسلم: وأوحى إلى تواضعوا حتى لا يفخرَ أحد على أحد ولا يبغيَ أحد على أحد..».

١٦ - معلِّم الخير..!

لا تعش مؤمنا سلبيا، أو صالحًا منزويًا، أو ذلك المتقي المنعزل..!

كلا.. لا يقوم الإسلام بالمنعزلين، ولا يشمخ برواد الزوايا والبعداء، ولكنه علم وعمل، وايمان وبلاغ، وفقه ونصيحة، وقد نعت القرآن إبراهيم عليه السلام بالأمة الذي يعلم الخير، ويبث النور، ويجمع خصال الفضائل، كما قال تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠). قيل كان إبراهيم أمة، أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه اللّه من الشرائع. فقام بدوره الإيماني، ومسؤوليته الأخلاقية، وتألم لما يشاهده من ضلال وانحراف .

وهذا الثناء من اللّه عليه يستنهض أهل الإيمان أن يسلكوا دربه، ويطلبوا سبيله، ويحملوا منهجه..! والمَقْصُود أنه مدح خَلِيله

بأربع صِفات كلها ترجع إلى العلم والعَمَل بِمُوجبِه، وتعليمه ونشره، فَعاد الكَمال كُله إلى العلم والعَمَل بِمُوجبِه ودعوة الخلق إليه.

ويستطيعها المؤمن الطموح: فيكون داعيةً قدوةً، مطيعًا لربه قانتا، وموحدا مخلصا، وشاكرًا ذاكرًا، يقر بفضل ربه وآلائه (واشكروا لي ولا تكفرون). فليست بثقيلة على من وعاها وأدى شيئا منها . فادع بهذه الصفات، وكن داعية في الخيرات، مبلغًا عن اللّٰه، مستشعرا مسؤولية الدعوة، واحتياج الناس إليها، وفقك اللّٰه وسددك..!

وليس البلاغ والتعليم أن تبلغ رُتبة العلماء الأكابر، كلا، ولكن تستطيع المشاركة بالكلمة والمقالة، وبالذكرى والفائدة، وبالمسجد والتوجيه، ومن خلال التقنية والجهد الالكتروني ..! فلا تتقال الجهود، ولا تحتقرن المعروف، وسارع مع المسارعين، واللّٰهُ الموفق.

١٧ - التباعدُ الواجب..!

من حيل الشيطان جرك بالوسائل والحبائل، التي قد توهمك بالسلامة، وأنك في منأى عن الخطر الداهم، أو المزلق الآثم..! ولذلك لا يحرم الشارع الحكيم منكرًا، إلا ويحذر من مقدماته وحباله، ومن ذلك الزنا والفواحش، فيقول سبحانه : ﴿وَلَا تَقۡرَبُوا الزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ (الإسراء: ٣٢).

فقال: ولا تقربوا، ولم يقل : ولا تزنوا أو ترتكبوا، حتى ينبهنا على حرمة المقدمات وخطرها، وإن استسهلتها الأنظار، ولذلك تبتدئ هذه البلايا بالسماع والنظر، أو التفكر والاسترسال، وقد قال سبحانه : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) سورة النور . فلو لم يكن للوسيلة أثر، لما كانت النهاية حفظ الفرج، فانتبه..!

ومن وسائله هذه الأيام: مشاهدة وسائل الإعلام الهابط، والاختلاط المحرم، والتساهل في العلاقات، ومساحات التواصل الاجتماعي الالكتروني، التي انحطت فيها الأخلاق، وانحلت منها المكارم، والله المستعان .

ثم علل القرآن النهى عن الزنا بقوله (إنه كان فاحشة) أي قبيحاً متناهيًا في القبح، مجاوزاً للحد شرعاً وعقلاً (وساء سبيلاً) أي بئس طريقاً طريقه وذلك لأنه يؤدي إلى النار ولا خلاف في كونه من كبائر الذنوب ومن أشنعها .

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم مشهور، لا يخفي على كل ذي لبّ، وهو يشتمل على أنواع من المفاسد منها : المعصية وإيجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الأنساب فلا يعرف الرجل ولد من هو ولا يقوم أحد بتربيته، وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل، وذلك يوجب خراب العالم، وانتشار الأسقام، وقد

شاعت بلاياه، وظهرت المعجزات بتحريمه، واستبان صدق الوحي، وأنه من أخبث الفواحش الفاشية هذه الأيام.

ومن الأحاديث العجيبة في هذا السياق قوله عليه الصلاةُ والسلام : (إِنَّ اللَّه كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) أخرجاه.

والقربُ من الزنا يكون بمقدمات الحواس الظاهرة، والتوجهات النفسية، كالتفكير والتخيل، والهم،، والعزم، ويتمثل القرب من الزنا بالحواس الظاهرة في النظر الحرام، إلى المرأة الأجنبية، والسمع الحرام المثير للشهوة، والمس الحرام باليد أو بالشفاه، واسترخاص ذلك، ومحاكاة الكفار والفساق، عافانا الله وإياكم.

١٨ - مجالسةُ الضعفاء..!

ليس بمحققٍ للايمان ذلك الذي يترفع على إخوانه الضعفة، أو يتعالى على المساكين، أو يضيق من الفقراء، ومن يسمون بسقط المتاع في زعم الناس وتصوراتهم..!

كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨).

أَيْ: اجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيُهَلِّلُونَهُ، وَيَحْمَدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَهُ وَيُكَبِّرُونَهُ من الضعفة وشبههم، وَيَسْأَلُونَهُ بِكُرَةً وَعَشِيًّا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، سَوَاءً كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ. ويُقَالُ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ صلى اللّه عليه وسلم أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُ، وَلَا يُجَالِسَهُمْ بِضُعَفَاءِ أَصْحَابِهِ كَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ

وَصُهَيْبٍ وَخَبَّابٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَلْيُفْرِدْ أُولَئِكَ بِمَجْلِسٍ عَلَى حِدَةٍ. فَنَهَاهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الْأَنْعَام:٥٢)، وَأَمَرَهُ أَنْ يُصَبِّرَ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَاصْبِرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم....﴾.

وفي ذلك تجسيد لعدالة الإسلام وما يحويه من مكارم الأخلاق، ورفض لمنطق التعالي والطبقية الاجتماعية التي كانت سائدة ذلك الزمان ..! وبزغت هذه الأيام في بعض البلدان، حتى نسوا أخلاق الإسلام، وشابهوا الغرب وتوجهاتهم ..!

وليُعلم أن هؤلاء الضعفاء إذا استُصلحوا، نبغَ منهم علماء وقراء ومؤثرون، ونفع الله بهم، خلافًا لأهل المال والجاه، زاهدين في ذلك ومنهمكين في دنياهم والزينة الفاخرة، ولذلك جاءات التحذيرات المختلفة عن الدنيا ومخاطرها، وضرورة الاندماج الاجتماعي، وإفشاء السلام، وقضاء حوائج الناس والمجتمع ..! والله الموفق .

١٩ - الدعاء الخفيّ..!

ما أعظمَ الدعاءَ الخفي، الذي لا يعرفه أحد، ولا يطلع عليه مخلوق، تخلو فيه بربك، ولا تلاحظه العيون، ولا تبلغه الأسماع، فهو أقرب الى الإخلاص، وأبعد عن الرياء.. وقد وصف اللّه زكريا عليه السلام بذلك:

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣).

قيل قام ليلًا، ونادى ربه واجتهد، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ نَامَ أَصْحَابُهُ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ يَقُولُ خُفْيَةً: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ فَقَالَ اللَّهُ: لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ.

وفي الدعاء الخفي مزيدُ تقوى ومراقبة، وتستطيعه بالعبادات المخفية كقيام الليل، ونوافل الضحى، ولحظات انشغال الناس، وقد قال تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥).

أي منكسرين مخفين له. والتضرع من الضراعة وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية الإسرار به، فإن ذلك أقطع لعرق الرياء وأحسم لمادة ما يخالف الإخلاص، وقيل: تضرعاً يعني تملقاً، وعن الحسن البصري رحمه اللّٰه: «بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً».

فليكن له من دعائك الكنزَ الخفي، الذي لا يعرفه أقاربك وجلاسك، فإنه المثمر المبارك، الذي يصح به القلب، وتبلغ به الهدف، ويكون عاقبة أمره حسنًى. فما تسلطَ الشيطان على بعض العباد إلا من خلال الجهر بالدعاء وإعلان الخلوات، واللّٰه المستعان.

٢٠ - الخطابُ اللّين..!

مهما كان الموقفُ، أو ضراوة الخصم، أو شدة المنكر، فلا يحتوي ذلك شيءٌ كالخطاب اللين، والقول الطيب، والكلمة اللطيفة، كما وجه بذلك ربنا تعالى لكليمه موسى عليه السلام : ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ (طه:٤٤)، أي دَارِيَاه وارفقا به، ولا تعنُفا في قولكما في رجوعه عن ذلك؛ والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه؛ يقال لأن الشيء يلين ليناً، والمراد تركهما للتعنيف كقولهما: (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) فإنه دعوة في صورة عرض ومشاورة، وقيل: القول اللين هو الكنية له أي: قولا له: يا أبا الوليد، وقيل، وقيل يا أبا مرة، وقيل أن يعداهُ بنعيم الدنيا والآخرة إن أجاب، وقيل أن يعداه بشباب لا يهرم بعده وملك لا يزول إلا بالموت .

ولا يُفلحُ الدعاة ما لم يلِن خطابهم، وتخفّ دعوتهم، وتطيبُ كلماتهم ..! ففيها اختراقٌ للمخالف، وكسب للمجانف، واحتواء لكل مكابر ومعاند..! فالكلمة الطيبة لها سحر وأسر، والليونة خطافة، والتسامح احتواء، فطيبوا كلماتكم تصب أهدافها، ورقوا في دعوتكم تقع موقعها، وترفقوا بالخلق، تصل مواعظكم، فقولا له قولًا لينًا، فَأمَرَ تَعالى أنْ يُلِينا القَوْلَ لِأعْظَمِ أعْدائِهِ وأشَدِّهِمْ كُفْرًا وأعْتاهم عَلَيْهِ؛ لِئَلّا يَكُونَ إغْلاظُ القَوْلِ لَهُ مَعَ أنَّهُ حَقِيقٌ بِهِ ذَرِيعَةً إلى تَنْفِيرِهِ وعَدَمِ صَبْرِهِ لِقِيامِ الحُجَّةِ، فَنَهاهُما عَنْ الجائِزِ لِئَلّا يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ ما هو أكْرَهُ إلَيْهِ تَعالى. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٢١ - الخشيةُ الغيبية..!

لا يؤتى كثيرون إلا عبر ذنوب الخلوات، والساعات المعزولات عن الناس، ولذلك حذر سبحانه ومدح أربابها، كما قال هنا ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٩). لأنها اختبار حقيقي، وفحص للإيمان، ومحنة للثبات والاستقامة، فإن صبرت نجوت، وإلا فقد فشلت في الاختبار، وعليك الاستغفار والمذاكرة من جديد..!

وهذه هي الخشية الغيبية ومراقبة الله في كل حال لا سيما لحظات التخفي عن الأعين، ونظائرها القرآنية، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق:٣٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (المُلْكِ:١٢).

ومما يساعد على ذلك ملء القلب بالتقوى والخشية، واستدامة

الذكر، واستحضار العظمة الإلهية، ومعاينة عاقبة الذنب وشؤمه، ووعي أنه متعة حينية، يعقبه العار والسقمُ والمحازن ..!

والغيبُ يشمل إيمانهم بالله ولم يروه، ومن إيمانهم به محبته وخوفه، وتعظيم شرعه وأحكامه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج: ٣٢ .

والخشية بوابة لحفظ الإسلام وضبطه، ومحبة القرآن وفهمه، وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم الصالح العظيم : (اللهمَّ إنِّي أسألُكَ خشْيَتَكَ في الغيبِ والشهادَةِ). أي أسألك يا إلهي دوام الخشية مع الخوف في السر والعلن، والظاهر والباطن في حال كوني مع الناس، أو غائباً عنهم، وليس لي فيها حول ولا قوة إلا بفضلك وتوفيقك..!

٢٢- النصرُ الدعوي..!

انصر الإسلام ولو بكلمة، بعبارة، بإفشاء سنة، بالدعوة إلى فضيلة، بمجاهدة منافق وفاجر واعلم أن في ذلك فضلًا كبيرًا، وتثبيتًا متينا، ودعوةً مباركة، وتعميمًا للخيرات، كما قال سبحانه : ولينصرن اللّه من ينصره . في سورة الحج، وآية الإخراج والمدافعة :

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

ومن ثمرات ذلك نصر اللّه لعباده، وتمكين دينه وشرح صدورهم، وغفران ذنوبهم، إن اللّه لقوي عزيز .ولما قام المؤمنون الأوائل بهذا الدور، وقد كانوا مستضعفين قلائل، نصرهم اللّه ومكنهم .. وقدْ

سَلَّطَهم عَلى صَنادِيدِ العَرَبِ وأكاسِرَةِ العَجَمِ وقَياصِرَتِهِمْ وأوْرَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم. ﴿إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلى نَصْرِهِمْ. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُمانِعُهُ شَيْءٌ.

ولن يتم ذلك إلا بوعي الإسلام، والعمل الدعوي الحقيقي، والصدق مع اللّه، واستشعار أننا كلنا مخاطبون بدين اللّه، ونشره في الناس، وكل بجهده وطاقته، وعدم استقلال كل نشاط يخدم دعوة اللّه، ويكشف الأنوار للناس، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ...﴾ (فصلت: ٣٣) واللّه الموفق .

٢٣ - الطاعاتُ الوجلة..!

كذا فليكن الإيمانُ، محبةً وانقياداً، وتعلقًا ووجلا، ليزول عنا الغرور، ونُزحزح عن التعالي والعجب، فكم تلوثت من طاعات، وكم حُرمنا من ثمرات.. يقول تعالى في مدح المؤمنين المسارعين :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠). أي خائفة أشد الخوف من أجل ذلك الإعطاء يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب اللّه، والجملة حالية.

وفي سنن الترمذي وابن ماجه وغيرهم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قلت يا رسول اللّه، قول اللّه (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر؟ وهو مع ذلك يخاف اللّه؛ قال: « لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف اللّه أن لا يتقبل منه».[١]

(١) الترمذي (٣١٧٥) ابن ماجه (٤١٩٨) المسند (٢٥٧٠٥).

وكلنا في حاجة ماسة إلى هذا الوجل العملي، والخوف الإيماني، الحامل على التقوى والتواضع، والتحاف الضراعة والاستكانة (وقلوبهم وجلة) . وكلما كان ذلكَ ديدنا للعبد، أفلحَ وراجع، وتفكر واستغفر . قال أبو ذر الغفاري -رضي اللّٰه عنه-:

«واللّٰه لو تعلمون ما أعلم، لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، ولو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم، ولا تقاررتم على فُرُشِكُم، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون » .

قال ابن القيم رحمه اللّٰه : « القلب في سَيره إلى اللّٰه عز وجل: بمنزلة الطائر:

فالمحبة : رأسه . والخوف والرجاء: جناحاه .

فمتى سلم الرأس والجناحان: فالطائر جيد الطيران .

ومتى قطع الرأس: مات الطائر .

ومتى فُقد الجناحان: فهو عرضة لكل صائد وكاسر» .

فاستشعر دائـما ضعفك وحاجتك لـربـك، وأن ذاك العبد الضعيف المقصّر، الذي لو رفع ستره عنك لانكشفت على الحقيقة، يقول سفيان الثوري رحمه اللّه: « ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي، لأنها تنقلب علي كلما آتي لأثبتها تنقلب فأنا أعالج وأجاهد وأجتهد في تثبيت النية » .

وقال يوسف بن الحسين : «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي، فكأنه يمكث على لونٍ آخر » .

وقـال شيخ الإسـلام رحمه اللّه: «واللّه إنـي إلـى الآن أجـدد إسلامي كل وقت. وما أسلمت بعدُ إسلاما جيدا».

وقال ابن القيم رحمه اللّه: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على

الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، وسهولة ذلك بأن تعلم أن مدح أحدٍ أو ذمه لا يضر».

٢٤ - عجائز بلا تبرج..!

لا يليقُ بالمرأة إلا الحجاب والتصون، وتبرجها مدعاة للانحراف وتسلط الذئاب البشرية عليها، وما هلكت بعض المجتمعات، إلا بسبب نزع الحجاب والاختلاط الآثم، وكسر الحدود بين الجنسين..!

ولوجوب الحجاب ورفض التبرج، رخص الشارع للعجائز من النساء التخفف من الحجاب شريطة عدم الزينة والتباهي، كما قال سبحانه : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٠).

والمراد بهن العجائز اللاتي قعدن عن الحيض، أو عن الاستمتاع، أو عن الولد من الكبر، فلا يلدن ولا يحضن واحدتها قاعد. فلا جناح عليهن التخفف من الحجاب غير مظهرات الزينة . (وأن

يستعففن) أي وأن يتركن وضع الثياب، ويطلبن العفة عنه، (خير لهن والله سميع عليم).

فـإذا كـان هـذا خطاب العجائز والقـواعـد، وتحـريضهن على التعفف، فالفتيات من باب أولى، لا سيما في عصر الفتن، وغلبة الشرور، كهذا العصر القاتم بالفتنة والمحنة، وكثرة المغريات، واتساع سبل الشّرور والانحـرافات، والله المستعان . وهـو مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: (ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أضَرَّ علَى الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ).[1]

وإذا تـأملنا الإضرارَ الشهواني هذه الأيام، وما يخلفه من تبعات، لما أنكره عاقل، وأن التبرج الأنثوي سببه ومصدره، والله المستعان .

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

٢٥- مرورُ الكرام..!

الشخصيةُ المؤمنة متميزة، ومرتفعةٌ بأخلاقها، وذاتُ وقار وحشمة، لا تحضر باطلا، ولا تصغي لمنكر، وإذا عرض لها أنكرت، او تجاوزته تجاوز الكرام، كما عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)

أي على سبيل الاتفاق من غير قصد (مروا كراماً) أي معرضين عنه، غير ملتفتين إليه، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه، والخوض فيه. ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش، والصفح عن الذنوب، والكناية عما يستهجن التصريح به.

قال ابن عباس رضي اللّٰه عنه : كان أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه آله وسلم إذا مروا به، يعني -الصنم المعروف - مروا كراماً، لا ينظرون إليه، كقوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه).

سورة القصص، وهكذا المؤمن دينه وخلقه يحولُ دون مشاركته... الآخرين في باطلُهم ومناكرهم، لأن ذلك يوحي بالرضا والإقرار، وحتى تتمايز الصفوف، لابد من المفارقة لتلكم المنكرات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ النساء: ١٤٠ .

ومثلها آية الانعام : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ .

وتقصيرُ المؤمن في ذلك مناقضٌ لدينه، ومذهب لأخلاقه، ومشوشٌ لقدوته، فينفرُ الناسُ عنه، ويتشككون في دينهم واستقامتهم، والله المستعان . ولهذا وجبت المراقبة وتصديق القول بالأعمال، وقد اشتهر قول علي رضي الله عنه: (هتف العلمُ بالعمل، فان أجابه وإلا ارتحل).

٢٦ - المعتمدُ المتين..!

ليس ثمة قوة في الوجود تضاهي قوة اللّه، ولا عظمة توازي عظمته، ولا علم يحيطُ كعلمه.. ولذلك هو المعتمد المتين، والركنُ الشديد، والسند الثمين، كما قال تبارك وتعالى في قصة موسى، وقد حوصر الى البحر الخصم، وجاءت الحشود الفتاكة، وارتعب الناس، حيث البحر والجنود والغرق...!

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الشعراء: ٦١ .

ثبت ثباتًا عظيما، وعلمنا درسا في التوكل واليقين، وصدق الإيمان، وأن البشر ليسوا شيئًا مذكورا في علم اللّه وقدرته..(كلا إن معي ربي سيهدين): أي سيدلّني على طريق النجاة.، وإسْنادُ المَعِيَّةِ إلى الرَّبِّ في ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ عَلى مَعْنى مُصاحَبَةِ لُطْفِ اللَّهِ بِهِ

وعِنايَتِهِ بِتَقْدِيرِ أسْبابِ نَجاتِهِ مِن عَدُوِّهِ. وذَلِكَ أنَّ مُوسى واثِقٌ بِأنَّ اللَّه مُنْجِيهِ لِقَوْلِهِ تَعالى: (إنّا مَعَكم مُسْتَمِعُونَ)، وقَوْلِهِ (أسْرِ بِعِبادِي إنَّكم مُتَّبَعُونَ). فمن توكل على اللّه كفاه، ومن انتصر به نصره، ومن لاذ به نجا وحفظ ...!

وتؤكد هذه الحقيقية نصوص كثيرة في القرآن والسنة، ومنها حديث الوصية الذهبية (احفَظِ اللّهَ يحفَظْك، احفَظِ اللّهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللّهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللّهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّهُ عليك، (رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ).(١)

وهذا الحَديثُ أصلٌ عظيمٌ في مُراقبةِ اللّهِ والاعتماد عليه، ومُراعاةِ حقوقِه، وتَفويضِ الأُمورِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه، وشُهودِ

(١) الترمذي (٢٥١٦).

تَوحيدِه وتفرُّدِه، وعجْزِ الخلائقِ كلِّهم وافتقارِهم إليه وحدَه، وأن من حفظه في شرعه نجاه وحفظه، وفيه أبلغُ ردٍّ على مَن اعتقَدَ النَّفعَ والضرَّ في غَيرِ اللّه مِن الأولياءِ والصَّالِحين وأهلِ القبورِ، أو سألَهم واستعانَ بِهم مِن دُونِ اللّهِ تعالى، أو تهيبَ عدوًا غاشما ومجرمًا فاتكا . واللّه الموفق .

٢٧ - الأدبُ النملي..؟

الحياةُ ميدان للتعلم، والاستفادة من كل المخلوقات والتجارب والظواهر ، فها هي أمة النمل يحكي لنا القرآن من أمرهم عجبًا، ويندبنا الى التعلم، يقول عز وجل :

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨). فلقد نصحت ها هنا ونبهت وحذرت واعتذرت ...؟ خلافا لمن يعيش أنانيًا ولا يبالي بالآخرين..؟

قال العلامةُ ابن القيم رحمه اللّٰه : « وتأمل كيف عظّم اللّٰه سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والطَّيْرِ فَهم يُوزَعُونَ﴾ ثم قال: ﴿حَتّى إذا أتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ﴾ فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم

المختصة بهم فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم ثم قالت ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها ثم قالت ﴿وهم لا يشعرون﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم ولذلك تبسم نبي اللّه ضاحكا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم» .

فإن لم نتأدب بالآداب المشهورة، والوصايا المحفوظة، فهلموا إلى أدب النمل، وخذوا من فقِهها وحصافتها، وكيف تفانت في النصح والتضحية، والتحذير والتوجيه، ومارست دورا قياديا مسؤولًا، تجاه قومها وأهلها، وأبدت أحسن الاعتذار عن سليمان وجنوده، واللّه الموفق .

٢٨ - تقديم الأكفأ..!

ليس عيبًا أن تتقللَ من الظهور أحيانا، وتجهز آخرين، وتدع المهمة لغيرك، لا سيما الأكفاء والقادرين، كما صنع موسى عليه السلام، وكان في لسانه عقدة تضعف خطابه وبيانه، فجعل المتحدث معه أمام فرعون أخاه هارون عليه السلام

قال عز وجل : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص: ٣٤).

وفيه الاعتراف بفضل المتقنين، وتقديمهم ليعرفهم الناس، وارتياح القادة أحيانا، وذلك أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ فِي لِسَانِهِ لَثْغَةٌ، بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجَمْرَةَ، حِينَ خُيِّر بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّمْرَةِ أَوِ الدُّرَّةِ، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ

لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طَهَ: ٢٧ -٣٢) أَيْ: يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾، أَيْ: وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لِأَمْرِي، يَصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّ خَبَرَ اثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَبَرِ وَاحِدٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

وأن الدعوةَ ومواجهة الناس تتطلب اللسان الواضح، والخطاب البيّن، وإبراز وجوه مختلفة، تنفع الناس من حين لآخر، وتكون مراجع للناس، ومَعالِمَ يهتدون بها.

٢٩ - المجاهدةُ المستدامة ..!

لا يستقيمُ إيمانُ العبد في هذه الدنيا بلا مجاهدة، ولا يصح دون مقارعة، ففيها الفتن قد تلونت، والمحن تزينت، والمغريات اختلفت، فوجب الصبر والجهاد، وتحتم الثباتُ والمواجهة، وعدم الاستسلام للهوى والمخاطر، كما قال تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(العنكبوت: ٦٩).

فهم في جهاد لعدوهم ولأهوائهم، وفي سبيل قرباتهم، فالشيطان يتربص، والعدو يهدد، والنفس تزين، والذاكر المجاهد هو الفائز المظفر.

قال ابن القيم رحمه الله : « علق سُبْحانَهُ الهِدايَةَ بِالجِهادِ فأكمل النّاس هِدايَة أعظمهم جهادا، وأفضل الجِهاد جِهاد النَّفس وجِهاد الهوى وجِهاد الشَّيْطان وجِهاد الدُّنْيا .

فَمن جاهد هَذِه الأرْبَعَة في اللّه هداه اللّه سبل رِضاهُ الموصلة إلى جنته.

وَمن ترك الجِهاد فاتَهُ من الهدى بِحَسب ما عطل من الجِهاد.

قالَ الجُنَيْد ﴿والَّذين جاهدوا﴾ أهواءهم ﴿فِينا﴾ بِالتَّوْبَةِ ﴿لنهدينهم﴾ سبل الإخْلاص.

وَلا يتَمَكَّن من جِهاد عدوه في الظّاهِر إلّا من جاهد هَذِه الأعْداء باطِنا، فَمن نصر عَلَيْها نصر على عدوه، وَمن نصرت عَلَيْهِ نصر عَلَيْهِ عدوه».

فجاهدوا في مرضاة اللّه لتطيبَ لكم الحياة، وتُفتح لكم المنائر، وتبزغ الثمار، يقول مالك بن دينار رحمه اللّه: (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم). وهذا يتطلب دينًا يقظًا، وخلقًا مشعاً، ونفسا ملتهبة، وعزيمةً ذاتَ اقتدار ومجاهدة، لا تغلبها لذة، ولا تتلاعب بها شهوة، واللّه المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٣٠- الفرح الإيجابي..!

قد تفرحُ لبعض خصومك أحيانًا، بسبب توافقكم في أمر ما، أو لأنهم أخفُّ شرًا من أولئك المجرمين الخُلص، وهنا درس وأدب قرآني، نفيد منه من مواعظ القرآن الجليلة، يقول تبارك وتعالى:

﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم:١-٥).

فانتصار الروم على الفرس في الكَرة الثانية كان خيرا لأهل الإسلام، لاتفاقهم في كونهم أهل كتاب..!

وكان مشركو مكة مع الفرس إخوانهم في الوثنية، وقد قال المُؤَرِّخُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ وأهْلِ الكِتابِ عَلى أنَّ مَلِكَ فارِسَ كانَ غَزا بِلادَ الشّامِ، وفَتَحَ دِمَشْقَ، وبَيْتَ المَقْدِسِ، الأُولى سَنَةَ ٦١٣، والثّانِيَةَ

سَنَةَ ٦١٤؛ أيْ: قَبْلَ الهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِسَبْعِ سِنِينَ -فَحَدَثَ أنْ بَلَغَ الخَبَرُ مَكَّةَ، فَفَرِحَ المُشْرِكُونَ، وشَمِتُوا بِالمُسْلِمِينَ، وقالُوا: أنْتُمْ والنَّصارى أهْلُ كِتابٍ، ونَحْنُ وفارِسُ وثَنِيُّونَ، وقَدْ ظَهَرَ إخْوانُنا عَلى إخْوانِكُمْ، ولَنَظْهَرَنَّ عَلَيْكُمْ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ، فَتُلِيَتْ عَلى المُشْرِكِينَ، فَأحالَ وُقُوعَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ، وتَراهَنَ مَعَ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلى مِائَةِ قَلوص -أي الإبل الفتية-، إنْ وقَعَ مِصْداقُها، فَلَمْ يَمْضِ مِنَ البِضْعِ -وهُوَ ما بَيْنَ الثَّلاثِ إلى التِّسْعِ- سَبْعُ سِنِينَ إلّا وقَدْ نَظَّمَ هِرَقْلُ جُنُودَ الرُّومِ وغَزا بِهِمْ بِلادَ فارِسَ سَنَةَ ٦٢١؛ أيْ: قَبْلَ الهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، فَدَوَّخَها، واضْطُرَّ مَلِكُها لِلْهَرَبِ، وعادَ هِرَقْلُ بِالغَنائِمِ الوافِرَةِ، ففرح المسلمون بذلك .

ولا رَيْبَ أنَّ ذَلِكَ أعْظَمُ مُعْجِزاتِ القُرْآنِ؛ فقد وقَعَ مِصْداقُهُ، واسْتَبانَ لِلْجاحِدِينَ من نُورِهِ إشْراقُهُ، وفي ضِمْنِهِ أنَّ سائِرَ غُيُوبِهِ كَذَلِكَ من ظُهُورِ الإسْلامِ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ، وزُهُوقِ الباطِلِ، وعُلُوِّ الحَقِّ،

وجَعْلِ المُسْتَضْعَفِينَ أئِمَّةً، وإيراثِهِمْ أرْضَ عَدُوِّهِمْ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ.

فافرح إيجابيا، وتعاطف تشاركياً مع بعض الناس، تفضيلا لهم على غيرهم، وإن لم يكونوا على شرطك ومنهجك (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّٰه) فهم أولى من عدو خالص، ومن مجرمٍ أثيم، لا يقابلك في مسألة، بل في الضد تمامًا، ومنابذ في كل المسارات، واللّٰهُ الموفق والهادي الى سواء السبيل.

٣١ - الإشفاقُ الأبوي..!

ليكن حرصُك على الأبناء عمليا، وتوجيههم وعظيا حانياً، تخشى عليهم تعاسةَ الدنيا، وشقاوة الآخرة، ولنستفد من موعظة لقمان الحكيم عليه السلام مع ولده، في القصة القرآنية البهيجة، يقول تبارك وتعالى:

﴿وإِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِه وهو يَعِظُهُ يابُنَيِّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان ١٣).

وهو يعظه أي: والحال أنه يخاطبه بالموعظة التي ترغبه في التوحيد، وتصده عن الشرك، وذلك لأن أعلى مراتب الإنسان أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وبدأ بالأقرب إليه وهو ابنه فقال:

(يا بني) تصغير إشفاق ومحبة (لا تشرك باللّٰه) وهذا يدل على

أنه كان كافراً كما قال بعضهم، فرجع إليه وأسلم. وقيل: كان مسلماً ونهاه أن يقع منه شِرْكٌ في المستقبل.

وكان من وعظه الجميل، وهو يرسخ فيه قضية الإيمان، وعظمة الصلاة، وكيفية التعايش: ﴿يا بُنَيِّ إنّها إنْ تَكُ مِثْقالُ حَبّةٍ من خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أوْ في السّماواتِ أوْ في الأرْضِ يَأْتِ بِها اللّهُ إنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

وعلمه بعض الآداب للعيش الصحيح، والخلق السليم فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (لقمان: ١٨).

والمعنى: لا تُعرِض بوجهك عن الناس تكبرًا، ولا تمش فوق الأرض فرحًا معجبًا بنفسك مختالا مترفعا عليهم، إن اللّه لا يحبّ كل مُخْتال في مشيته، فخور بما أوتي من نعم يتكبر بها على الناس ولا يشكر اللّه عليها.

ثم زاده أيضا تعليما وتأديبا: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

وتوسّط في مشيك بين الإسراع والدَّبيب مشيًا يظهر الوقار، واخفض من صوتك، لا ترفعه رفعًا يؤذي، إن أقبح الأصوات لصوت الحمير لارتفاع أصواتها وقبحها، ومن كلماته الجميلة لابنه: «أنه قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: يا بُنَيَّ إنَّ الحِكْمَةَ أَجْلَسَتِ المَساكِينَ مَجالِسَ المُلُوكِ».. فترتفع بالعلم، وتسود بالحكمة . ويستفاد من هذه الآيات:

عظمةُ التوحيد وذمُّ الشرك وسوء عاقبته، وفضل الصلاة وأنها مادة التوحيد والتعظيم، وحُسن التواصي والتناصح.

وضرورة تعاهد الأبناء بالتربية والتعليم. والشفقة عليهم والخوف من انحرافهم، وشمول الآداب في الإسلام للسلوك الفردي والجماعي، وتقديم الشخصية المثلى لذلك والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٣٢- الجُنوبُ المجافية..!

خافت اللّه، وتطلعت لفضله، فعافت كثرة النوم، فخلت منها المضاجع، وارتاحت الفرش، واستطاب جسومهم القيام والصلاة، فكان المدحُ الجميل، والثناء الرائع...:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦).

أيْ تَتَنَحّى وتَرْتَفِعُ جُنُوبُهم عَنْ مَواضِعِ النَّوْمِ، وهَذا كِنايَةٌ عَنْ تَرْكِهِمُ النَّوْمَ، ومِثْلُهُ قَوْلُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ رَواحَةَ يَصِفُ النَّبِيَّ صَلّى اللّهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ:

نَبِيٌّ تَجافى جَنْبُهُ عَنْ فِراشِهِ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكِينَ المَضاجِعُ...!

والمَشْهُورُ أنَّ المُرادَ بِذَلِكَ التَّجافِي القِيامُ لِصَلاةِ النَّوافِلِ بِاللَّيْلِ، فقد عاينوا فضله، واستطعموا رائحته، وعاشوا جماله، فكرهوا

فواتَ الخير، او ذهابَ السعادة ..! فإن للقيام طعومةً غالية، وسرورًا غامرًا، هنيئًا لك هدي لذلك ...! جاء في الحديث عن أبي امامة ضي اللّٰه عنه، أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « عَلَيْكُمْ بقيام الليل ؛ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللّٰهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ » .

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أَيْ: خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرُبَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَمُقَدَّمُ هَؤُلَاءِ وَسَيِّدُهُمْ وَفَخْرُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ، فقد كان يقوم حتى تتفطر قدماه، وحض على القيام في مواضع كثيرة، واللّٰه الموفق .

٣٣ - الاستبشار اليقيني..!

تصور أن الشدائد أحيانا تبعث بالبشرى، وتحمل اليقين، وتأتي بالمسرات ..! ولكنه ليس لكل الخلق، وإنما لفئة اصطفاها المولى تعالى، وزكى قلوبها، وبارك افهامها، ونم المؤمنون الصادقون، الذين لا تزيدهم البلايا إلا إيمانًا، كما حصل للصحابة رضي اللّه عنهم، يوم الخندق، والحصار الشديد، قال سبحانه وتعالى :

﴿ولَمّا رَأى المُؤْمِنُونَ الأحْزابَ قالُوا هَذا ما وعَدَنا اللَّهُ ورَسُولُهُ وصَدَقَ اللَّهُ ورَسُولُهُ وما زادَهم إلّا إيمانًا وتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٢١-٢٢).

أَيْ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يعقبه النَّصْرُ الْقَرِيبُ؛ لأن الشدائدَ مؤذنة بالفرج، والنكبات بوابة للنصر، وما ضاقت إلا لتفرج ولهذا قال : وصدق اللّهُ ورسوله.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْحَالُ وَالضِّيقُ وَالشِّدَّةُ

﴿مَا زَادَهُمْ﴾ ﴿إِلا إِيمَانًا﴾ بِاللَّهِ، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أَيِ: انْقِيَادًا لِأَوَامِرِهِ، وطاعة لرسوله.

وهنا درس عظيم في الصبر واليقين، وما ينبغي أن يتصف به المؤمن في المحن، واحتشاد الأعداء. لا سيما وقد قالوه بعد رعب المنافقين وهلعهم، وامتلاء القلوب رهبةً وشدة . وبعدها قال ثناء عليهم: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾.

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿وَما زادَهم إلّا إيمانًا﴾، صَرِيحٌ فِي أَنَّ الإيمانَ يَزِيدُ وينقص، وقَدْ صَرَّحَ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي آياتٍ مِن كِتابِهِ، فِي آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِيَزْدادُوا إيمانًا مَعَ إيمانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَأمّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهم إيمانًا﴾ (الأنفال: ٢)، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ.

فاللهم زيادةً في الإيمان، وتثبيتًا على الطريق .

٣٤ - البطرُ البشري ..!

من أقبحِ ما اتصف به الإنسان بطر النعمة، وملالة العافية، واشتياق الشقاوة والمتاعب...! فهو في لذة وعافية، ورغد وارتياح، ولكنه يأبى إلا البطر والطغيان، والعيش كعيشة المستكبرين، وهو ما حصل لقوم سبأ في اليمن، أغرقتهم النعم، وخالطتهم الأرزاق، اما رعوها حق رعايتها، وطلبوا فيها الإعراض والطغيان، كما قال المولى الكريم :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: ١٩)

وقد كانوا في غنية من ذلك ..!

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وكان هذا القول منهم بطراً وطغياناً لما سئموا النعمة، ولم يصبروا على العاقبة، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار، وسألوا اللّٰه تعالى أن يجعل بينهم

وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر، مفاوز وقفاراً شدادا، فأجابهم اللّه إلى ذلك وخرب تلك القرى المتواصلة، وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر، واللّه المستعان .

فكانت دعوتهم هذه كدعوة بني إسرائيل حيث قالوا : (ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها) الآية مكان المن والسلوى وكقول النضر ابن الحارث: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء)، فيا قبح السؤال، وسوء العاقبة .

والواجبُ شكر اللّه وحمده على العافية، وليس تمني الشرور والاستكبار . ثم قال سبحانه(وظلموا أنفسهم) حيث كفروا باللّه وطغوا وبطروا نعمته، وتعرضوا لنقمته (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بأخبارهم وعبرةً لمن بعدهم . والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجباً من فعلهم، وأمرهم وشأنهم واعتباراً بحالهم وعاقبتهم.

(ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل

التفريق، بحيث لا يتوقع بعده عود اتصال، وهـذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث وذلـك إن اللّه سبحانه لما أغـرق مكانهم وأذهب جنتهم تفرقوا في البلاد فصارت العرب تضرب بهم الأمثال فتقول: «تفرقوا أيدي سبأ، وذهبو أيادي سبأ»، والأيدي ههنا بمعنى الأولاد لأنهم يعتضد بهم، ولكنهم ساءت أحوالهم، وتقطعت أواصرهم، وباتوا في شر حال .

وخليقٌ بنا الاتعاظ، وعدم الوقوع في صنعهم وتقليدهم، للسلامة وحسن العاقبة. (إن في ذلك) أي فيما ذُكر من قصتهم وما فعل اللّه بهم (لآيات) بينات وعبراً ظاهرات لكل متعظ (لكل صبار شكور) أي لكل من هو كثير الصبر عن المعاصي، والشكر للّه على نعمه، وخص الصبار والشكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيـات، وكَانَ مطرِّف رحمه اللّه يَقُولُ: « نِعْمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ، الَّذي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ»..

واللّه الموفق .

٣٥- العداوةُ الشيطانية..!

كما تتخذ أصدقاء معروفين، وخلانا اصفياء، فلا تنس تحديد العدو بدقة، وعدم تجاهله أو نسيانه، وألد أعداء المؤمنين بل كل بني آدم، الشيطان بوسائله ووساوسه، كما قال القرآن في نصوص كثيرة، ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر ٤-٦). أَيْ: هُوَ مُبَارِزٌ لَكُمْ بِالْعَدَاوَةِ، فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ، وحاذروا حيله، وتجنبوا خبثه، وَخَالِفُوهُ وَكَذِّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَقْصِدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ، فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ.

ومن جهل بني آدم كثرة خداع الشيطان لهم وتزييناته المتربصة،

حتى يوقعهم في المعاصي، فيا للّه كم من بشر وقع في شراكه، وكم من فضلاء ورطهم في تلبيساته، ولذلك شرع لنا الاستعاذةُ من شره، وكثرة الذكر، والتماس العلمُ النافع، القامع لشره وآفاته.

وإنما ينهزم الشيطان ويواجه بالطاعة المهدية، والصراط المستقيم، واستدامة الطاعات، فهكذا يتخذ عدوًا، وتنصب له المجابهة الحقيقية . وأيضا قهوه بالعلم ومجالسة العلماء، قال القشيري: (ولا يتعزى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب، فإنه لا يغفل عن عداوتكم فلا تغفلوا أنتم عن مولاكم لحظة).

وعن مجاهد رحمه اللّه قال:» لم يرَ إبليسُ ابن آدم ساجدًا قط إلا التطم ودعا بالويل، ثم يقول:أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار» .

وعن أبي الجلد رحمه اللّه قال: « وجدت التسويف جندًا من جنود إبليس، قد أهلك خلقًا من خلق اللّه كثيرًا» .

وعن أبي الجوزاء رحمه اللّه قال: « والذي نفسي بيده إن الشيطان لازم بالقلب، ما يستطيع صاحبه أن يذكر اللّه تعالى، أما ترونهم في مجالسهم وأسواقهم، يأتي على أحدهم عامة يومه لا يذكر اللّه تعالى إلا حالفا، ماله من القلب طرد، إلا قوله: لا إله إلا اللّه، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦).

واللّه الموفق.

٣٦- البلاغُ المبين..!

كذا هو دور الأنبياء ومسيرتهم ومنهجهم.. بلاغ ودعوة، ونصح وتزكية، وتذكير وتوجيه، وفي بلاغهم لا ينقطعون ولا يؤذون، ولا يتكلفون أَو يتضايقون.. قلت ثمارهم أو زادت، مضت عباراتهم أو كسدت، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إنّا إلَيْكم لَمُرْسَلُونَ وَما عَلَيْنا إلا البَلاغُ المُبِينُ﴾ (يس ١٦-١٧).

فدعوتهم بلاغ مبين، وخطاب واضح، لا يرتجون منه ثوابا ولا شكورا، أو مغانم وأموالا ..! بل هم دعاة مشفقون، ونصحةٌ صادقون، يحملون الخير للناس، ويبتغون النفع للأنام . ولذلك يستجيب من يستجيب، ويعاند من يعاند، وكل سيلقى حسابه، وسيأتي يومَ القيامة عبدا ذليلًا، كما قال سبحانه: ﴿وكلهم آتيه يومَ القيامة فردًا﴾ سورة مريم. وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم:

(عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ).[1]

وفي هذا دليلٌ على أن العبرة القيامُ بالدعوة والاحتساب عليها، فها هم أنبياء اللّه لم يُخضع لهم، ولا يشك في نياتهم ومقاصدهم، ووعي هذا الخطاب يعلّم الدعاة الاعتماد على اللّه الواحد، وعدم العناية والمبالغة في النتائج، وأن يكون التوجه خاليا، ولا ينصرف لمخلوق .. واللّه الموفق .

(١) مسلم (٢٢٠).



٣٧ - التسبيحُ المنقذ..!

تشتد المضايقُ، وتُعتمُ الظلمات، وتعظمُ الأرزاء، وليس لها مخرج إلا اللّه وذكره وتسبيحه، وقد علمنا القرآن دواء الشدائد ومنارة الظلمات، ومنجاة المؤمنين المبتلَين، كما في قصة يونس عليه السلام، وقد غرق في البحر فالتقمه الحوت، وأوشك على الهلاك، فلاذ بربه وخالقه، وسبح وهلل، وذكر وصلّى، كما قال تبارك وتعالى، مبينًا سبب منجاته:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

(الصافات ١٤٣.١٤٤) فرحمه اللّه بفضل تسبيحه .

أي كان من الذاكرين للّه أو المصلين له أو من القائلين (لا إله إلا أنت) الآية، كما صح بذلك الحديث في دعوة المكروب، وقيل: من العابدين. وقيل بل عبادته في الرخاء نجته ساعات البلاء.

وقد ورد أن تسبيحه كان الذكر المشهور والمذكور في سورة الأنبياء، وفي الحديث: (دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا، وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ - : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ».[1]

(للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) أي لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم البعث وقيل للبث في بطنه حياً، وفي هذا دليل على عظمة الذكر وتسبيح المولى تعالى، وأن في الذكر طاقة وقوةً، تدفع البلايا والآثام، ولذلك كا الذكر هو أفضل الأعمال على الإطلاق، والقربة المنيبة إلى الخالق تبارك وتعالى، والله الموفق والمعين .

(١) الترمذي (٣٥٠٥).

٣٨ - الهدى لا الهوى..!

إنما السلامة والعافية في اتباع الهدى، والضلالة والانحراف في اتباع الهوى، فكم هوى بأناس، ودمر آخرين، وقضى على فئات، كما قال سبحانه ناعظازنبيه داود عليه السلام :

﴿ولا تَتّبِعِ الهَوى فَيُضِلّكَ عن سَبِيلِ اللّهِ إنّ الّذِينَ يَضِلُّونَ عن سَبِيلِ اللّهِ لَهم عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ﴾ (ص: ٢٦).

والمعنى: يا داود إنا استخلفناك على الأرض، أو جعلناك خليفة لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدبر أمر الناس، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير قط.

ثم علمه كيفيةَ القضاء (فاحكم بين الناس بالحق) أي بالعدل الذي هو حكمُ اللّه بين عباده وبه تساسُ الأمور، وتنزاح المظالم، لأن

الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالحُ العالم، واتسعت أبـوابُ الخيـرات، وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس، أفضى إلى الخراب والضياع والتعاسة .

(ولا تتبع الهوى). أي هوى النفس في الحكم بين العباد . وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل، وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس .

والهَوى: مناقض للحق والعدل، وهو كِنايَةٌ عَنِ الباطِلِ والجَوْرِ والظُّلْمِ لِما هو مُتَعارَفٌ مِن المُلازَمَةِ بَيْنَ هَـذِهِ الأُمُـورِ وبَـيْنَ هَوى النُّفُوسِ، فَإنَّ العَدْلَ والإنْصافَ ثَقِيلٌ عَلى النُّفُوسِ فَلا تَهْواهُ غالبًا، ومَن صارَتْ لَهُ مَحَبَّةُ الحَقِّ سَجِيَّةً، فَقَدْ أُوتِيَ العِلْمَ والحِكْمَةَ، وأُيِّدَ بِالحِفْظِ أوِ العِصْمَةِ.

والنَّهْيُ عَنِ اتِّباعِ الهَوى تَحْذِيرٌ لَهُ وإيقاظٌ لِيُحَذِّرَ مِن جَرّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِهِ، ويَتَعَقَّبَهُ فَلا يَنْقادُ إلَيْهِ إلّا بَعْدَ التَّأمُّلِ والتَّثَبُّتِ، وقَدْ قالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: « اتَّهِمُوا الرَّأْيَ» .

وفقنا اللّه واياكم لطرق الهدى، وجنبنا الهوى والردى .

٣٩- الآخرة المحذورة..!

يمتدح اللّه تعالى المؤمن القانت، ويضفي عليه صفات رائعة، كان منها تقواه وعبادته، وحـذره ورجـاؤه، بحيث أنه يفقه معنى الوجود والحياه، ويصرف عقله للّه وتعظيم شرعه وأحكامه.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩).

والمعنى أذلك الكافر أحسن حالاً ومآلاً، أمن هو قائم بطاعات اللّه في السراء والضراء، وفي ساعات الليل، مستمر على ذلك، غير مقتصر على دعاء اللّه سبحانه عند نزول الضرر به، وقيل القانت هو المطيع، وقيل: الخاشع أو القائم في صلاته،...!

وعدّ تعالى من صفاته(يحذرُ الآخرة): أي عذابها وهي غيبِ

مجهول، وحياة مختلفه عرفت بالوحي والرسل، ولكن المؤمن القانت موقن بها وبوقوعها، فهو يتأهب لها، ويجتهد في الاستعداد لها..

(يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أَيْ: فِي حَالِ عِبَادَتِهِ خَائِفٌ رَاجٍ، وَلَا بُدَّ فِي الْعِبَادَةِ مِنْ هَذَا وَهَذَا، وَأَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي مُدَّةِ الْحَيَاةِ هُوَ الْغَالِبُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ فَلْيَكُنِ الرَّجَاءُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ، كَمَا فِي الحديث عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ الَّذِي يَخَافُهُ».[1]

وانما اكتمل المؤمن بخوف الآخرة، لأنه تخوفها واستعد لميعادها، فهو موقن بالله، مسارعٌ في مرضاته، وفي ذلك دليل على عظمتها

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) وسنن ابن ماجه (٤٢٦١) والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٠١).

وأنها دارُ القرار، ومنتهى النهاية، وهوان الدنيا، وأن الاستقرار والأمان الحقيقي في الدار الخالدة، والآخرة الخاتمة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (الضحى: ٤). وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (الأعلى: ١٦).

٤٠- الذكرى الهادئة..!

هـي كلمات صـادقـات، يفعلها بعض المؤمنين عند الحاجة، فيقولونها بمنطق العقل والحكمة، لا التعاطف والانتماء. وقد التجأ لها مؤمنُ آل فرعونَ، وقد بانت له الشُّرور والمخاطر تجاه موسى عليه السلام، قال تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...). سورة غافر : ٢٨. فهذا المؤمن المستخفي قدم الذكرى في هدوء وحذر، ووعظهم وهو يكتم إيمانه، فتحرك للّه ولدينه، وحذر المجرمين سوء عاقبة أمرهم..!

وقيل كان قبطياً وهو ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، وهو المراد بقوله (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيْ: كَيْفَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا لِكَوْنِهِ يَقُولُ: «رَبِّيَ اللَّهُ»، موحدًا مؤمنا، وَقَدْ أَقَامَ لَكُمُ الْبُرْهَانَ عَلَى

صِدْقِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ؟ ثُمَّ تنزل مَعَهُمْ فِي الْمُخَاطَبَةِ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا لَمْ يُظْهِرْ لَكُمْ صِحَّةَ مَا جَاءَكُمْ بِهِ، فَمِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ التَّامِّ وَالْحَزْمِ أَنْ تَتْرُكُوهُ وَنَفْسَهُ، فَلَا تُؤْذُوهُ، فإن اللَّهَ سَيُجَازِيهِ عَلَى كَذِبِهِ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا وَقَدْ آذَيْتُمُوهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ، فَإِنَّهُ يَتَوَعَّدُكُمْ إِنْ خَالَفْتُمُوهُ بِعَذَابٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فترسلوا وإياكم والاستعجال، فكذبه على نفسه، وصدقه فيه حتفكم ونهايتكم...!

وزاد في وعظهم ونصحهم، وهو يعد نفسه واحدا منهم لئلا يشكوا فيه، فأكد لهم أن الكذبة تعيسون وغير موفقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ كَاذِبًا كَمَا تَزْعُمُونَ، لَكَانَ أَمْرُهُ بَيِّنًا، بعرف فِي كلامه وفعاله . ولكننا نَرَى أَمْرَهُ سَدِيدًا، وَمَنْهَجَهُ مُسْتَقِيمًا، وَلَوْ

كَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الْكَذَّابِينَ لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ، وكان على خير واستقامة .

ثُمَّ قَالَ الْمُؤْمِنُ مُحَذِّرًا قَوْمَهُ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْهُمْ وَحُلُولَ نِقْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أَيْ: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْمُلْكِ وَالظُّهُورِ فِي الْأَرْضِ بِالْكَلِمَةِ النَّافِذَةِ وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ، فَرَاعُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِ اللَّهِ، وَتَصْدِيقِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ إِنْ كَذَّبْتُمْ رَسُولَهُ، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أَيْ: لَا تُغْنِي عَنْكُمْ هَذِهِ الْجُنُودُ وَهَذِهِ الْعَسَاكِرُ، وَلَا تَرُدُّ عَنَّا شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ. وضمّ نَفْسَهُ مَعَ قَوْمِهِ فِي (يَنْصُرُنَا) و(جاءَنا)، لِيُرِيَهم أَنَّهُ يَأْبَى لِقَوْمِهِ ما يَأْبَاهُ لِنَفْسِهِ، وأنه حريص عليهم، وأَنَّ الْمُصِيبَةَ إِنْ حَلَّتْ لا تُصِيبُ بَعْضَهم دُونَ بَعْضٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥) .

٤١ - الدفعُ بالحُسنى..!

من أعظمِ المواقف الإنسانية، وأطايب الأخلاق الشرعية، وجميل الخصال الاجتماعية الدفع بالحسنى، والرد الجميل، والصفح الرفيع، وهو ما مدحه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

أي لا تستوي الحسنة التي يرضى بها اللّه ويثيب عليها، ولا السيئة التي كرهها اللّه ويعاقب عليها،ثم قال مبينًا لحُسن عاقبة الحسنة (ادفع بالتي هي أحسن..)

أي ادفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان، والذنب بالعفو، والغضب بالصبر، والإغضاء عن الهفوات، والاحتمال للمكروهات، قال ابن عباس:» أمر المسلمين بالصبر عند الغضب، والحلم عند

الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم اللّه من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم..!

وقال في موضع آخر:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٦).

وهذه الخصلة من خير ما اتصف بها المسلم، وهي نافعة له في الدعوة وكسب الناس، وتعكس فضله وصبره، وتغليبه المصلحة الدعوية والاجتماعية . وسيلقاها كثيرا في سيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وفضلاء المؤمنين، ففي الصحيحين عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللّه عَنْهُ، قَالَ : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ : مُرْ لِي

مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ.

والإسلامُ يعلِّمنا هنا الصبرَ وكظم الغيظ، وهو باب من الخيرات واسع، ومنفذٌ لمنازل الثواب رائع، ولا يحتمله إلا الذين صبروا، ومن شرحَ له صدره لحلاوة الإسلام، ونداوة الإيمان، فغلب الحق على الباطل، وتشبه بالحكماء لا السفهاء، واللّه الموفق والهادي الى سواء السبيل.[1]

(١) البخاري (٣١٤٩). مسلم (١٠٥٧).

٤٢- الشورى الكاشفة..!

كما أنها صفةٌ جليلة ورئيسةٌ للمجتمع الإسلامي، فاتخذها صفةً لك في البيت والعمل والسفر، وفي التخطيط والعلوم، والتجارة والتعاملات، فما خاب من استشار، وفي القرآن الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨).

أي أجابوه إلى ما دعاهم إليه وأقاموا ما أوجبه عليهم من فريضة الصلاة بشروطها وهيئاتها وحسنها وتمامها . وزاد من صفاتهم الجميلة، الشورى الكاشفة، والاستنهاض العقلي للآراء المحكمة، فقال :

(وأمرهم شورى بينهم) أي يتشاورون فيما بينهم ولا يعجلون ولا ينفردون بالرأي، وفي ذلك من الحكمة والتواضع والفرز وجمال النتائج ما لا يخفى ..!

وإنما يُعرفُ العقلاءُ بشوراهم، ويكشف المستكبرون والمستبدون بعنادهم وانفراداتهم، ولذلك كان صلى اللّٰه عليه وسلم أكثر الناس مشورةً لأصحابه، واشتهر قوله في السيرة: «أشيروا على أيها الناس». قال ابن العربي: الشورى ألفةٌ للجماعة، وسبارٌ للعقول، وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هُدوا، فمدح اللّٰه تعالى المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك. وما أحسن ما قاله بشار بن برد:

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعنْ	برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً	فريشُ الخوافي قوةٌ للقوادم

فالشورى مدرسةٌ عقلية، وخصلة حكمية، وفضيلة اجتماعية، يفعلها الفضلاء، ويأنفها الجهلاء، ومن لا يعي زهور عواقبها، وجماليات نتائجها، فهي منطلق قرآني، وتوجيه رباني، ومبدأ

أخلاقي، وقد قال لرسوله (وشاورهم في الأمر) سورة آل عمران.

قال عمرو بن العاص رضي اللّه عنه: «ما نزلت بي قط عظيمة فأبرمتها حتى أشاور عشرة من قريش فإن أصبت كان الحظ لي دونهم وإن أخطأت لم أرجع على نفسي بلائمة» .

وإنما ينتدبُ لها الأتقياء العارفون وقد صح حديثُ : (المستشار مؤتمن) .[1]

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه:(شاور في أمرك من يخاف اللّه عز وجل). وقال سفيان الثوري رحمه اللّه : (ليكن أهل مشورتك أهل التقوى وأهل الأمانة ومن يخشى اللّه... ولا تكتمن أحداً من النصيحة شيئاً إذا شاورك فيما كان للّه فيه رضى) .

اللهم وفقنا وسددنا .

(١) أبو داود (٥١٢٨) والترمذي (٢٣٦٩).

٤٣- الذكر الطارد..!

ليس للمسلم من لهج يحفظه من الآفات، ويصونه من الشياطين، ويضبط عليه دينه وسلوكه، شيءٌ كذكر الله تعالى، والتنفس اللساني بالتعظيم والتمجيد للواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦).

والمعنى: ومن يعرض ويتعامى ويتغافل (عن ذكر الرحمن) ولم يخف عقابه ولم يرد ثوابه، وقيل: يول ظهره عن القرآن (نقيض له شيطاناً) يلتزمه ويرديه.

(فهو له قرين) أي ملازم له في الدنيا، يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية ولا يفارقه.. ويدخل في ذلك هَاجرُ التلاوة، ومضيعُ الأوراد، والمستبدل بها صوت المعازف والمحرمات، والله المستعان.

ويشبه هؤلاء المستنكفون عن الذكر، والكارهون للعلم والدروس،

فهم في مرتعٍ من الشياطين وخيم، وفي مهاوٍ من التباب سحيقة ..! قد تكتنفهم الهوى، واجتاحهم الشيطان، وأخذتهم السبل ..! وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أَيْ: هَذَا الَّـذِي تَغَافَلَ عَنِ الْهُدَى نُقَيِّضُ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. فَإِذَا وَافَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن وُفق لذكر الله ومحبته، خافه الشيطان، ولم يجد إليه سبيلا، بل ان الشياطين لتنفر عنه، وتهاب شخصيته ومجالسه، وما ذلك إلا بسبب الذكر ودوامه والتدرع به.

ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحانَهُ أَنَّ الشَّيْطانَ يَصُدُّ قَرِينَهُ ووَلِيَّهُ عَنْ سَبِيلِهِ المُوَصِّلِ إلَيْهِ وإلى جَنَّتِهِ، ويَحْسَبُ هَذا الضّالُّ المَصْدُودُ أنَّهُ عَلى طَرِيقِ هُدًى، حَتّى إذا جاءَ القَرِينانِ يَوْمَ القِيامَةِ يَقُولُ أحَدُهُما لِلْآخَرِ: ﴿ياليَتَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ﴾ كُنْتَ لِي في الدُّنْيا، حيث أضْلَلْتَنِي وانحرفت بي عن سواء السبيل.

٤٤- الأفعالُ الكريمة..!

وهي تلك التي تدل عَلَى نفاسة الأصل، وعراقة الأخلاق، فلا تشع إلا خيرا، ولا توقع إلا جميلا، كما هو ديدن المرسلين، وكرام الوجوه..! وإسلامنا المجيد يحملُنا على ذلك، وأحكامه وآدابه تربي فينا مسالك الكرم والطيب والنداوة، قال تعالى في مدح موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُم قَوْمَ فِرْعَوْنَ وجاءَهم رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (الدخان: ١٧).

أَيْ كَرِيمٌ فِي قَوْمِهِ. وَقِيلَ: كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ بِالتَّجَاوُزِ وَالصَّفْحِ.

ولو لم يكن كذلك ما استجاب له الناس، ولا انصاعوا لكلماته، ولا أحبوا رسالته، ولذلك كانت هذه صفة المومنين، وسمت الصالحين، لا سيما الدعاة منهم والعاملون لدينِ اللّٰه تعالى.

فاجعل من نفسك منارةَ إكرام، ومنبع إحسان، ومدرسة

أخلاق، تنسابُ الفضائل، وتشيعُ المكارم، وتصنع المحاسن، كما قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، ومدح المختار ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) .

ومن كرم النفس : طيبُ الكلام، وحسن الرد، والتواضع للخلق، والصفح عنهم، والإحسان إليهم، وقضاء حوائجهم، والصبر على أذاهم. ولا يزال الداعية كريمًا في عيون الناس ما لان خطابه، ورق جناحه، وحسنت فعاله . قال صلى الله عليه وسلم : (إنَّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا)[1]

فاللهم أصلح منا الأخلاق، وهذب منا النفوس .. واللهُ الموفق.

(١) رواه الترمذي (٢٠١٨).



٤٥ - التفكرُ الكوني..!

في الكون دلائل، ولدينا عقول، وفي الوجود آيات وعندنا أفهام، وقد جعل اللّه التفكر فيها من معالم الإيمان وأسباب زيادته، ومنحنا فيها التسخير والانتفاع .

قال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣).

أي سخَّر لعباده جميع ما خلقه في سمواته وأرضه وكونه، مما يتعلق به مصالحهم ويقوم به معايشهم وكان من مخلوقات السموات، الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح، وكذلك في الأرض الجبال والنبات والبحار والأنهار، وجعل فيها خيرهم ومنافعهم، فكيف لا يعونَ ذلك، أو لا يحملهم على تعظيمه وعبادته...؟!

إنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أيْ فِيما ذُكِرَمِ التسخير العظيم ﴿لَآياتٍ﴾ عَظِيمَةَ الشَّأْنِ، كَثِيرَةَ الْعَدَدِ، عزيزةً الوجود، لولا فضل الله، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيوظفون عقولهم، ويحركون بصائرهم فِي بَدائِعِ صُنْعِهِ تَعالى وعَظائِمِ منته، جَلَّ وعزّ، فَإنَّ ذَلِكَ يَجُرُّهم إلى الْإيمانِ والإيقانِ والشُّكْرِ.

كما قال القائل:

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإلَهُ	أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ؟!
وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحريكَةٍ	وَتَسكينَةٍ أَبَداً شاهِدُ

فلا يسوغ تضييعُ نعمة العقول في الملاهي والتفاهات، وإهمال تلكم الآيات الربانية والدلائل الإلهية القائمة على عظمته وتوحيده، لا سيما وفيها منافع الخلق، وحوائج الناس، وانتفاع البشر..!

٤٦ - الاستقامة الحقيقية ..!

كثيرون يدعون الإسلام، وفقه التوحيد، وقلائل هم المستقيمون، المتبعون للهدي، المقتفون الآثار، ولذلك ينكشف اكثرهم في السلوك العملي، والإيمان التطبيقي..! ومن ثم لا ينفع دعوى الإسلام بلا استقامة، أو حفظ العلم بلا عمل..!

قال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣).

(إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا) أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة على الشريعة التي هي منتهى العلم، وصدحوا بالإيمان، وحققوه امتثالاً، وقالوا وفعلوا، وسمعوا المواعظ فانزجروا، فهؤلاء هم ارباب الاستقامة، وهم حملة الشرع والهداية، وهم المهتدون حقيقةً..!

وإنما تُنالُ الاستقامة، بمجاهدة النفس، والإقبال على اللّٰه، وتعظيم شرائعه، والتباعد عن مغاضبه، ومصاحبة الأخيار، وحضور مجالس العلم، ولزوم الصراط المستقيم، وتقديم الهدى على الهوى، وقد فقه السلف الصالح معنى الاستقامة وحققوا صفاتها، سئل أبو بكر الصديق رضي اللّٰه عنه عن الاستقامة، فقال: (أن لا تشرك باللّٰه شيئاً).

وعرفها عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه بقوله -: (الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب).

- وقال عثمان رضي اللّٰه عنه: (إخلاص العمل للّٰه).

وقال علي رضي اللّٰه عنه: (بأنها أداء الفرائض).

وقال الحسن البصري رحمه اللّٰه: (استقاموا على أمر اللّٰه، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته).

ومن اهتدى لطريقها كان ثوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لُحُوقِ مَكْرُوهٍ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فَواتِ مَحْبُوبٍ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها الذين لا يبغون عنها حولا ولا يريدون بها بدلا هم من يسكنها حقيقةً، ويفوز بزينتها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله المقتضى للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها، ولم يبدلوها أو ينحرفوا عن سبيلها، والله المستعان .

٤٧- العلمُ المستيقن..!

ما عُبد اللّه بأفضل من العلم، ولا عرف توحيده إلا بالعلم الصحيح، وكلما تزود العبدُ علمًا، زاد إيمانًا وصلاحا، ولذلك كان العلمُ الطريق الصحيح لمعرفة اللّه ومعرفة شرعه، فأمر بذاك رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو أمر لأمته تباعا..

قال عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد: ١٩).

أيْ: فاعْلَمْ يا مُحَمَّدُ أنَّهُ لا مَعْبُودَ تَنْبَغِي أوْ تَصْلُحُ لَهُ الأُلُوهِيَّةُ ويَجُوزُ لَكَ ولِلْخَلْقِ عِبادَتُهُ، إلّا اللَّهُ الَّذِي هو خالِقُ الخَلْقِ، ومالِكُ كُلِّ شَيْءٍ. يَدِينُ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلُّ ما دُونَهُ. ولا يتحصل ذلك إلا بمزيد العلم والطلب، وحب المعرفة والتفقه، كما قال عنه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

وعن سفيان بن عيينة رحمه اللّه : أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ فأمر بالعمل بعد العلم.

وفي الصحيح : قال البخاري رحمه اللّه: بَابٌ : الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ . فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وكأنه: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصححٌ للنية المصححة للعمل، فنبه على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إن العلم لا ينفع إلا بالعمل». تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه.

وعلمُ التوحيد له براهينه في الوجود والواقع، ولكنه يتحقق بالعلم وطلبه، والذكر وفقهه، ولذلك كان العلماء أكثر الناس توحيدا

وخشيةً، لأنهم يعلمون عن اللّٰه وصفاته ما لا يضاهيهم بشر، ولا يدانيهم مدعٍ..! والسبب فقههم شريعة ربهم، واستدامتها تلاوة كتابه وتدبره، قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد : ٢٤) .

٤٨- الشديد الرحيم..!

ما أجملَ فقهَ المؤمن لمواضع الشدة والرحمة، فيرتديها في مظانها، ويستعد لها في أوقاتها، فيشد على المجرمين الكفرة، ويرحم ويرق مع المؤمنين والضعفاء منهم، كما

قال سبحانه : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا..﴾ (الفتح : ٢٩) .

أي من أسلم له من المؤمنين، هم في صفتهم (أشداء على الكفار) أي غلاظ عليهم، كما يغلظ الأسد على فريسته، وهو جمع شديد لا تأخذهم بهم رأفة، لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم، فلا يرحمونهم. ومع المسلمين (رحماء بينهم) أي متوادون متعاطفون، كالوالد مع الولد، وهو جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم الرحمة والرأفة، ونحوه قوله: (أذلة على

المؤمنين أعزة على الكافرين). وقيل إنها نازلة في أهل الحديبية، ولكنها عامة في منهاج المسلم.

يقول الحسن رحمه اللّه : بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم وتمسها، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وتلزق بها، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه، ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التذلل، وهذا التعطف، فيشددوا على من ليس من دينهم، ويعاشروا إخوانهم المؤمنين في الإسلام، متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى والاحتمال منهم، كما قال تعالى : (إنما المؤمنون إخوة).

ومن المؤسف هنا ترفق بعضنا بالكفار والمنافقين، وغلظتهم على المؤمنين وضعفائهم في اتجاه معاكس للنص القرآني ومنهج

الوحي، بدعوى التسامح والتعايش...! ويرى هؤلاء المتسامحون مع العمالة المسلمة غلاظا شدادا، قد نزعت منهم الرحمة، وقد صح قوله صلى اللّه عليه وسلم: (من لا يرحم لا يرحم).

٤٩ - التبينُ قبل العجلة..!

غالبًا ما تنشأ المشكلاتُ بسبب العجلة وعدم التبين والتثبت، وتشتعل المواقف من جراء تهور مفرط، أو استعجال مندفع. ولذلك كان الأدب القرآني الرفيع، فحص الأمور، وتبين حقيقتها قبل المواجهة، وإصدار الأحكام، كما قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

والمراد تثبتوا من الأمور وافحصوها قبل المحاكمة لها، والتبين التعرفُ والتفحص والتبصر بالأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر، وفي تنكير الفاسق والنبأ تعميمٌ في الفساق والأنباء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ، فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، وهذا من أروع خصال المؤمنين وآدابهم، لئلا يقعوا في المكروه، أو ما لا تحمدُ عقباه...!

وتشاعُ هذه الأيام اخبار وحوادث، نستعجل في فهمها وتقويمها دون أنْ نتثبت، ثم يخالطنا الندم والحسرة، والواجب إعمال ذلك النهج، وعدم اطلاق التهم والمواقف حتى تعرف القضية بكاملها، ولئلا يساء الظن، ويحاكم الناس على ظنك ونقصان ..!

وهذا عام في كل أخبار الناس مؤمنهم وفاسقهم، خيرهم وشرهم، وَهاهُنا فائِدَةٌ لَطِيفَةٌ، وهي أنَّهُ سُبْحانَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِرَدِّ خَبَرِ الفاسِقِ وتَكْذِيبِهِ ورَدِّ شَهادَتِهِ جُمْلَةً، وإنَّما أمَرَ بِالتَّبَيُّنِ، فَإنْ قامَتْ قَرائِنُ وأدِلَّةٌ مِن خارِجٍ تَدُلُّ عَلى صِدْقِهِ عُمِلَ بِدَلِيلِ الصِّدْقِ، ولَوْ أخْبَرَ بِهِ مَن أخْبَرَ، فَهَكَذا يَنْبَغِي الِاعْتِمادُ في رِوايَةِ الفاسِقِ وشَهادَتِهِ، وكَثِيرٌ مِنَ الفاسِقِينَ يَصْدُقُونَ في أخْبارِهِمْ ورِواياتِهِمْ وشَهاداتِهِمْ، بَلْ كَثِيرٌ مِنهم يَتَحَرّى الصِّدْقَ غايَةَ التَّحَرِّي، وفِسْقُهُ مِن جِهاتٍ أُخَرَ، والله الموفق .

٥٠ - الشخصيةُ المنيبة..!

مهما حلّ بك من معضلات، أو ترددت بك الذنوب فاجعل من نفسك نفسًا منيبةً إلى ربها، رجاعةً لخالقها، مستشعرةً حسابها، وحضور أجلها، كما قال عز وجل:

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: ٣٣.

فهي مراقبة للّهِ في خلواتها، كما تقدم بيان ذلك، وفيها صفة الإنابة والإقبال على اللّه . وقيل القلب المنيب:

أي راجع إلى اللّه مخلص لطاعته، وقيل: بسريرة مرضية، وعقيدة صحيحة، وقيل: المنيب المقبل على الطاعة .

وكلها محتملة ومتفقة في حق المؤمن اليقظ، والعابد المتفكر، فهو عابد لربه ومقبل عليه، وراج لثوابه، وخائف عقابه . وفي لحظات الغفلات، وساعات النزوات، سريع الرجوع، حثيث التوبة لربه، وملتزم للاستغفار .

ومن الإقبالِ على الله طاعته، والمحافظة على فرائضه وتعظيم شرائعه، والانزجار عند نواهيه ومغاضبه. وإذا وقعت منه الخطيئة أناب واستغفر، واتعظ وادكر، وبكى بكاء النادمين، وفي الحديث (الندم توبة).[1]

ولا يزال يستحضرُ الاستغفار محافظًا عليه، مستشعرا حاجته له، وقد كان صلى الله عليه وسلم يديمه يوميًا وتحصى له نحو مائة مرة في اليوم. جاء في السنن عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وتبْ عليّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ».

(١) ابن ماجه (٤٢٥٢) المسند (٣٥٦٨).
(٢) أبو داود (١٥١٦) الترمذي (٣٤٣٤).

٥١ - الحق الاجتماعي..!

يغفلُ كثيرون عن حقوق مهمة في حياتهم وفي تعايشهم الاجتماعي، ويعتقدون أن مالهم المبذول على إخوانهم، حسنة وتفضل منهم، وهذا خطأ، بل هو حق موجوب، وحتم مفروض كتزكية المال في أهله، والصدقة على الفقراء والمحرومين، كما قال تبارك وتعالى:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات ١٩).

أي يجعلون في أموالهم، ويوجبون على أنفسهم، حقاً للسائل والمحروم، تقرباً إلى الله عز وجل بمقتضى الكرم يصلون بها الأرحام والفقراء والمساكين، وقيل : الحق هنا الزكاة المفروضة والأولى العموم، فتحمل على صدقة النفل وصلة الرحم وقِرى الضيف، لأن السورة مكيةٌ، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة...!

وفي سورة (سأل سائل) و (فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ

وَالْمَحْرُومِ) بزيادة معلوم . والسائل :،هو الذي يسأل الناس لفاقته، والمحروم فقيل هو الذي يتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنياً، فلا يتصدقون عليه...!

والواجب صِلَةُ هذه الأصناف الاجتماعية بالمال ورحمتهم، وعدم نسيانهم، لأنه مقتضى الإخوة الدينية، ومن قصر فيها ما فقه الإسلام ولا رعى رسالته، قال صلى اللّه عليه وسلم: (ابغوني الضُّعفاءَ، فإنَّما تُرزقونَ و تُنصرونَ بضعفائِكُمْ).[١]

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجِدة والمال إعطاءه وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع.

شرع عطاءه بأمره، وحَرمه بقدره فلم يجمع عليه حرمانين، وفي ذلك من الحكم والأسرار ما لا يخفى .

(١) أبو داود (٧٧٩).

وهذا كان وصف مدحٍ لعباد اللّٰه المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ (الذاريات ١٥-١٦).

وصفوا بالقيام والاستغفار ورحمة الخلائق، ودوام الإحسان ونحوها، جعلنا اللّٰه وإياكم منهم.

٥٢ - الإشفاق الإيماني..!

لابـد أن يكون لإيمانك بـالله أثـر، تعظمُ به الشرايع، وتبادر الفضائل، وتتقي به الحدود والمناهي، وتتفكر في نهايتك واقبالك على الله في يـوم لا ريـب فيـه، وتلبس في دنـيـاك حـالـة الـوجَـل والإشفاق...!

كما قال عز وجل :

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (الطور: ٢٦).

إشفاقٌ من الذنوب، وإشفاق من القيامة، وإشفاق من النهاية السيئة، وإشفاق من الذنب وتبعاته، لا سيما والمواعظ قوارع، والمحاضرات موقظة، والنصائح متوالية، والأحاديث ترن في كل مكان...! فكيف لا يخاف بعضُنا ولا يتعظ ...!؟

(إنا كنا قبل) أي: من قبل الآخرة، وذلك في الدنيا (في أهلنا

مشفقين) أي خائفين وجلين من عـذاب اللّٰه، أو كنا خائفين من عصيان اللّٰه أو من نزع الإيمان وفوت الأمان، أو من رد الحسنات والأخذ بالسيئات، ومن اشتداد الغفلة وقسوة القلب، والمقصود إثبات خوفهم في سائر الأوقات، والأحوال بطريق الأولى، فإن كونهم بين أهليهم مظنة الأمن، فإذا خافوا في تلك الحال، فلأن يخافوا دونها أولى وأحكم.

ومن إشفاقِهم تعظيمهم لربهم، والخشوع عند آياتِهِ، والتفكر في كتابه، والتأثر بهدايته، والعيش في ظلاله، قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّٰه وجلت قلوبهم) سورة الأنفال. وقال سبحانه : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾ (الزمر:٢٣).

ولم يزل ذلك سمتًا للذين اتقوا وعلى ربهم يتوكلون. يرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذورا، واللّٰه المستعان.

وإشفاقُ القلب ورقته، علامة على الصلاح وقرب العبد من خالقه، وفقهه لمواعظ الكتاب والسنة، وخوفه من ذنوبه وتقصيره، وتفكره في المصير الأخروي، جاء في الصحيحين عن ابن مسعود أن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، قال له:» اقرأْ علَيَّ القرآنَ قلت : يا رسولَ اللّٰهِ كيفَ أقرأُ عليك وإنما أُنزِل عليك قال : إني أشتهي أن أسمعَه من غيرِي قال : فافتتحتُ سورةَ النساءِ فقرأت عليه فلما بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال : نظرت إليه وعيناه تذرفانِ[1].

(١) البخاري (٤٥٨٢) ومسلم (٨٠٠).

٥٣ - المديحُ الشخصي..!

مهما بلغ صلاحك، أو أحبك الناسُ، وانتشر ذكرك، فتجنب مديح الـذات، وأعـرض عن تفخيمها والحديث عنْ أسرارها، فغالبُ ذاك مهلكٌ لصاحبه، وهو ضرب من تزكية النفس وإظهار محاسنها.. كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: ٣٢).

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح والتفاخر

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئا.

ونهاية ذلك العجب والغرور، وتحطيم الإخلاص على مدارج التباهي والذكريات والواقع الحاصل كما يزعمون.

ولهذا كان اللائق بالمؤمن حب الإخلاص وكراهية التزكية والمدح الذاتي، لئلا يقع في المحظور، ويحرم المذخور، واللهُ المستعان.

قيل لسليمان التيمي رحمه الله:» أنت أنت من مثلك؟ قال: لا تقولوا هكذا لا أدري ما يبدو لي من ربي عز وجل؟ سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧).

قال الربيع بن خثيم لبعضِ أصحابِه:» لا يغرنَّك كثرةُ ثناءِ الناسِ من نفسِكَ فإنه خالصٌ إليك عملُك» .

قال مطرف: «ما مدحني أحد قط إلا تصاغرت عليَّ نفسي».

قيل لرباح القيسي: «ما الذي يفسد على العمال أعمالهم؟ فقال: حمد النفس، ونسيان النعم».

اللهم أصلح نياتنا وطهر نفوسَنا، إنك جواد كريم.

٥٤- دعاءُ المغلوب..!

لاينفكُّ المؤمنُ عن الدعاء في كل الساعات والأحـوال، ويعظمُ حين الحاجة والشعور بالضعف، فيصدقُ التعلق، ويعظم الرجاء، وتشتد الرغبة، كما هو حال المحاصرين والمغلوبين والمضطرين، كحال نوح عليه السلام، لما دعا

﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠).

أي (مغلوب) من جهة قومي، لتمردهم عن الطاعة، وزجرهم لي عن تبليغ الرسالة، وذلك بعد صبره عليهم غاية الصبر حيث مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، داعيًا يعالجهم، وينصح لهم، فلم يفد فيهم شيئاً، ولما يئس عن إجابتهم، وبان له تمردهم وعتوهم، وإصرارهم على ضلالتهم، طلب من ربه سبحانه النصرة عليهم فقال: (فَانْتَصِرْ) أي: انتقم لي منهم ثم ذكر سبحانه ما عاقبهم

به فقال: ﴿فَفَتَحْنا أبْوابَ السّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (القمر:١١) فحلّت بهم الكارثة، وغلبتهم الفيضانات من كل مكان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والدعاء سلوةُ المؤمن في المحن، ومخرجه في الكروب، ومنفذه في الأزمات، وراحته في الشدائد، قال صلى الله عليه وسلم : (الدعاء هو العبادة). وهو قوة على الدوام، وطاقة تشق العنان، وعلامة في القلب وعنوان.

والدعاء غالبٌ لا مغلوب، ومنتصرٌ لا مهزوم، يعلمك الإيمانَ والتوكل، ويمنحك العزم والتقدم، ويزيدُ الهمة والتحزم، من تعلق به أفلح، ومن لازمه سعد، ومن ركن إليه عزّ وانتصر، قال تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر:٦٠.

٥٥ - الأدلة الشاهدة..!

ما من نعمة سخرها اللّه لعباده، وذللها لهم، إلا وهي شاهدة على توحيده، موجبة للإيمان برسله، وتصديق أحكامه، ومقتضيةٌ لشكره والإنابة إليه..! ولذلك لما ساق نعمه وآلاءه في سورة الرحمن، كرر هذه الجملة الفريدة، المستنكرة على الثقلين، عدم فقه حق هذه النعم، والتقصير في حقها ...

قال سبحانه : ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢)﴾ (الرحمن ١١-١٣). وجاء في الحديث الصحيح عند الترمذي رحمه اللّه وغيره : عَنْ جَابِرٍ رضي اللّه عنه قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا فَقَالَ : « لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ ؛ كُنْتُ

كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قَالُوا : لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ».[1]

ويؤخذ من هذا أنه يسن لسامع القارىء لهذه السورة أن يجيبه بالجواب المذكور؛ كلما قرأ الآية المذكورة، كما فعلت الجن وأقرهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على ذلك، ولام على الصحابة في سكوتهم.

فقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ) أي فباي فرد من أفراد نعم (رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)؟ أبتلك النعم المذكورة هنا؟ أم بغيرها؟ والمراد بالتكذيب الإنكار والخطاب للجن والإنس، لأن لفظ الأنام يعمهما وغيرهما. وكرر سبحانه هذه الآية في هذه السورة في أحد وثلاثين موضعاً تقريراً للنعمة، وتأكيداً للتذكير بها، على عادة العرب في الاتساع . ثمانية منها ذُكرت عقب آيات فيها تعدادُ عجائبِ خلق اللّه، وبدائع صنعه،

(١) الترمذي (٣٢٩١).

ومبدأ الخلق ومعادهم. ثم سبعة منها عقبَ آيات فيها ذكر النار وشدائدها، بعدد أبواب جهنم، وحسنَ ذكرُ الآلاء عقبها، لأن من جملة الآلاء رفعُ البلاء، وتأخير العقاب، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما بعدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها في الجنتين اللتين، هما دون الجنتين الأولين، أخذاً من قوله: ومن دونهما جنتان، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من اللّه، ووقاه السبعة السابقة، قاله بعضهم، نسأل اللّه من فضله.

٥٦- تسبيح الواحد العظيم ..!

من صور تعظيمه تعالى تسبيحه وذكره على كل حال، وتنزيهه من العيوب والآفات، كما قال تبارك وتعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٧٤).

أمر بتسبيحه وتحميده : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى.

فهو الَّذِي بِقُدْرَتِهِ خَلَقَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ الْمُتَضَادَّةَ الْمَاءَ الْعَذْبَ الزُّلَالَ الْبَارِدَ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا كَالْبِحَارِ الْمُغْرِقَةِ. وَخَلَقَ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ، وَجَعَلَ هَذِهِ مَنْفَعَةً لَهُمْ فِي مَعَاشِ دُنْيَاهُمْ، وَزَاجِرًا لَهُمْ فِي الْمَعَادِ.

فكن عبدالله ذاكرا مسبحا ربك، ومعظما لشأنه تبارك وتعالى، فهو الإله الحق المستحق للعبادة، وتسبحه بتنزيهه مما وصفه به المشركون وأضرابهم، وتسبحه بالذكرِ والأوراد، وتسبحه بالصلاة وحسن العمل، وتسبحه باستحضار عظمته وعلى شأنه، وأنه على كل شيءٍ قدير، وقد تنزه عن الأمثال والأنداد والنظراء، ليسَ كمثله شيءٌ وهو السميع البصير .

وقد تكررت هذه الآية في آخر السورة، بعد تعداد الأصناف الثلاثة في الآخرة، السابقين وأهل اليمين، وأهل الشمال.. ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠)...﴾ (الواقعة ٨٦-٩٦).

والموضع الثالث في آخر الحاقة، بعد أن قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة ٥٢).

(فسبح باسم ربك العظيم) أي نزهه عما لا يليق به وقيل فصل لربك والأول أولى، وقيل هو قوله سبحان اللّه. وقد جاء في الحديث الصحيح عند بعضهم : عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ . قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» . فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ». وصححه النووي وابنُ القيم رحمهما اللّه[1]

واللّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (١٦٨)،

٥٧ - الخشوع الحي ..!

ما ابتلي المؤمنُ بشيء أشد من قسوة القلب، أو تراكم الغفلات، وما ضُرب بشيء أعظم من تهاونه وجموده، ولذلك كان العتاب شديدًا على المؤمنين، وقلة اتعاظهم بآيات اللّه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الۡحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الۡكِتَابَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ الۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

أي ألم يحضر خشوع قلوبهم؟ ولم يجيء وقته؟ هذه الآية نزلت في المؤمنين، قال الحسن: يستبطئهم وهم أحب خلقه إليه، والمعنى: أنه ينبغي أن يورثهم الذكر خشوعاً ورقة، ولا يكونوا كمن لا يلينُ قلبه للذكر، ولا يخشع له. وأخرج مسلم

عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا اللّه بهذه الآية (ألم يأن...) إلا أربعُ سنين ».[١]

(١) مسلم (٣٠٢٧).

وعنه: قال: لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض، أي شيء أحدثنا .. أي شيء صنعنا « .!؟

وعن ابن عباس:» قال إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة، من نزول القرآن (ألم يأن) الآية «.

وقال عبد العزيز ابن أبي دواد رحمه الله:» إنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت هذه الآية (ألم يأن) الخ « . وكأنها شكلٌ من العتاب لهم..!

وفي هذا دليل على ذم الغفلة والتغافل الدنيوي، والانهماك الحياتي، المسبب لحالٍ كتلك، بحيث تقع المواعظ، وتنزل الآيات، ولا متعظ ولا متدبر..! ولا يفسر إلا بشيء من الغفلة أو الانشغال المعيشي، وإذا تضاعف مرض القلب ونزلت به القسوة والجفوة، وبات لا ينتفع بشيء من المواعظ، والله المستعان.

٥٨- المجلس الفسيح..!

تفسحُ المجلس بفساحة أخلاق أهلها، وسعة صدورهم، وطهارة نفوسهم، فلا يضيقونَ ولا يستأثرون، ولكن يفرحون بكل قادم وزائر وضيف، كما هو الديدن الأمثل للخلق الإيماني، يقول تبارك وتعالى مؤدبا لهم ومرشدا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ (المجادلة: ١١).

أمر الله سبحانه المؤمنين، بحسن الأدب والترفق مع بعضهم، بالتوسعة في المجلس، وعدم التضايق فيه، وقيل: كانوا يتنافسون في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض، وأن يرحبوا بكل داخل، وهو نص عام في مجالس العلم والزيارة والاجتماع والحروب والمشاورات.

ومع أنه أدب لطيف، إلا أن بعضنا قد يتهاون فيه، ويترفع على إخوانه، ويؤثر نفسه بالسعة والمكان والمنزلة، فتحصل الجفاوة، وتقع القطيعة، بيننا السعة والترحيب تحمل على المودة والتواضع ومحبة الآخرين، بحيث يفرح بها الداخل، ويأنس بانشراح أحبابه به.

وفي الآية أدب المجلس، وأدب الصلاة والحرب كما نقل في (وإذا قيل انشزوا فانشزوا..) والصحيح حمل الآية على العموم، والمعنى إذا قيل لكم انهضوا إلى أمر من الأمور الدينية فانهضوا ولا تتثاقلوا، ولا يمنع من حملها على العموم كون السبب خاصاً، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو الحق، ويندرج ما هو سبب النزول فيها إندراجاً أولياً وهكذا يندرج ما فيه السياق وهو التفسيح في المجلس اندراجاً أولياً.

يرفع الله الذين آمنوا منكم) بطاعتهم لله ولرسوله وامتثال

أوامـره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم في الدنيا والآخـرة بتوفير نصيبهم فيهما (والـذيـن أوتـوا العلم) أي ويرفع العالمين منهم خاصة (درجات) عالية في الكرامة في الدنيا والثواب في الآخرة، وأنه لولا العلم لما فطنوا لهذه القضايا، ففي العام حكمة وعبرة، ونور ودرايـة، وفهم وفقاهة . وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بآدابه والعمل بمقتضاه. قال علي رضي اللّٰه عنه: (هتفَ العلمُ بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل).

واللّٰه الموفق .

٥٩ - الأخذ السني ..!

هو أخذ الأوامر والتوجيهات من مصدرها الحقيقي، ومنبعها الثابت، والمشرع عليه الصلاةُ والسلام، تُعمل سنته، وتتبعُ أخباره، وتحكّمُ أقواله، ولا يجوز فيها المراجعة او التردد والحيرة ..!

قال عز وجل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧). أي ما أعطاكم من مال الغنيمة والفيء (فخذوه وما نهاكم عنه) أي عن أخذه (فانتهوا) عنه ولا تأخذوه، والحق أنها عامة في كل شيء، يأتي به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويشرعه، من أمر أو نهي، أو قول أو فعل، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكل شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إياه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثر فائدتها، وهي أبلغ في الاتباع والموافقة .

وهكذا فهم السلف الأوامر النبوية، جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي اللّه عنه، قال:« لعن اللّه الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق اللّه، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك لعنت كيتَ وكيت، قال: وما لي لا ألعن من لعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وهو في كتاب اللّه قالت: لقد قرأت ما بين الدفتين فما وجدت فيه شيئاً من هذا، قال: لئن كنت قرأتِه لقد وجدتِه، أما قرأتِ: (فما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه ».[1]

والسببُ في هذه المتابعة، لأنه لا يقول إلا حقا عليه عليه الصلاة والسلام، وهو الرسولُ المعظم، وطاعته من طاعة كما قال سبحانه:

(١) البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (٢١٢٥).

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء:٨٠). قال مالك بن أنس رحمه اللّه:

سمعت ابن شهاب يقول: « سلّموا للسنة ولا تعارضوها ».

وقال الإمام الشافعي رحمه اللّه:

« إذا وجدتم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سُنة فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد»، وله أيضًا رحمه اللّهُ:

«إذا صحّ الحديث فهو مذهبي». و قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه : «من نوّر قلبه فرأى ما في النص والشرع من الصلاح والخير وإلا فعليه الانقياد لنصِّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشرعه وليس له معارضته برأيه وهواه».

واللّهُ الموفق.

٦٠- البراءةُ الدينية..!

لا يصحُّ لمؤمنٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يوالي أعداء الله، أو يتحبب إليهم، أو يرضى بباطلهم، بل ينفر منهم ويعاديهم، كما هو مقتضى الولاء والبراء الشرعيين، وهو ديدن الأنبياء قبلنا، كما قال تعالى :

﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْراهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إنّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمّا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وبَدا بَيْنَنا وبَيْنَكُمُ العَداوَةُ والبَغْضاءُ أبَدًا حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ إلاّ قَوْلَ إبْراهِيمَ لأبِيهِ لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وما أمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وإلَيْكَ أنَبْنا وإلَيْكَ المَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

والمعنى : قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام ينفعكم، ﴿فِي إبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، وقد تبرأوا من

المجرمين وأديانهم، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، حيث استقر الإيمان، وظهر العدوان، فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم مستمرين على كفركم ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، ولكم فيهم منهج مبين بالقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، والواجبُ عليكم اتباعهم، وعدم الخروج عن سمتهم وصفتهم..!

ولا يمنع ذلك التعامل معهم والبيع والشراء، وإنما المحرم موالاتهم ومحبتهم، ونصرهم على المسلمين، أما كون المسلم يشتري منهم ويبيع عليهم، أو يضع عندهم حاجة، فما في ذلك بأس، حتى النبي صلى اللّه عليه وسلم أكل طعام اليهود، وطعامهم حل لنا، كما قال سبحانه: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ (المائدة:٥) .

٦١- ركب الأنصار..!

لتكن من ذلك الركب، وتلكمُ الفئة الطامحة الى مرضاة اللّه، وتحب دينه، واعظم شريعته، وتستشعر واجبها تجاه خدمة الإسلام ورعايته..! وهؤلاء هم أنصار اللّه الحقيقيون، والباذلون أموالهم وأوقاتهم في سبيله وإعلاء كلمته، كما قال عيسى عليه السلام، مستنفرا قومه :

قال تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ..﴾ (الصف: ١٣).

فهنا خطاب إلهي، يأمر عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَ قَالَ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ؟ أَيْ: مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿قَالَ

﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ -وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أَيْ: نَحْنُ أَنْصَارُكَ عَلَى مَا أُرْسِلْتَ بِهِ ومُوَازِروك عَلَى ذَلِكَ؛ وصابرين معك في هذا السبيل، وَلِهَذَا بَعَثَهُمْ دُعَاةً إِلَى النَّاسِ فِي بِلَادِ الشَّامِ فِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَالْيُونَانِيِّينَ.

وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي». حَتَّى قيَّض اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَبَايَعُوهُ وَوَازَرُوهُ، وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفَوا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ؛ والتزموا بلا نكوص، وَلِهَذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْأَنْصَارَ، وَصَارَ ذَلِكَ عَلَمًا عَلَيْهِمْ، وعنوانا لفضلهم ومنزلتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَرْضَاهُمْ.

ولم تنقضِ هذه النصرة المباركة، ولا تزال تستدعي أصحابها، وتستشرف لأحبابها، كي يقوموا بها، ويقدموا قربان محبتهم للّه ودينه..! ويستطيع كل واحد منا نصرةَ الإسلام هذه الأيام، بالمال أو الدعوة او التضحية والنصيحة، أو الإفادة والكتابة، والمهم أن لا ينضم لفريق القاعدين أو اليائسين، فيكون من الخاسرين، وقد صح قوله صلى اللّه عليه وسلم : (فواللّهِ لَأَنْ يهديَ اللّهُ بكَ رجُلًا واحدًا خيرٌ لكَ مِن أنْ يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ)

(١) البخاري (٤٢١٠) مسلم(٢٤٠٦).

٦٢- حفظ الحمولة..!

من تحمل حمولةً، أو استُودع شيئًا وجب عليه حفظه، واللّٰه تعالى قد حملنا كتابه ورسالته، وكلفنا الوفاء بها، وحفظها في الناس، ولا اشتع واقبح ممن عرف ذلك وضيعه، كاليهود وأشباههم، قال سبحانه وتعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥).

أيْ عُلِّمُوها وكُلِّفُوا العَمَلَ بِما فِيها، وأوتوا أمانتها، فلم يحفظوها، والمُرادُ بِهِمُ اليَهُودُ ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها﴾ أيْ لَمْ يَعْمَلُوا بِما في توجيهاتها، أو يطبقوا أحكامها، والَّتِي مِن جُمْلَتِها الآياتُ النّاطِقَةُ بِنُبُوَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، ووجوب اتباعه وأنه خاتم النبيين، فآثروا الفاني على الباقي، واستكبروا وضيعوا، فكانوا من الخاسرين.

ويدخل في ذلك كل مؤمن حمل هذا الدين، ويتصاعد الأمرُ في حق العلماء والقراء والقدوات، وطلاب العلم، وضرب بهم تعالى أسوأ المثل وأشنعه إذا هم قصروا وضيعوا، قال ابن القيم رحمه اللّٰه:« قاسَ مَن حَمَّلَهُ سُبْحانَهُ كِتابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ ويَتَدَبَّرَهُ ويَعْمَلَ بِهِ ويَدْعُوَ إلَيْهِ ثُمَّ خالَفَ ذَلِك ولَمْ يَحْمِلْهُ إلّا عَلى ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقِراءَتُهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ ولا تفهُّمٍ ولا اتِّباعٍ ولا تَحْكِيمٍ لَهُ وعَمَلٍ بِمُوجِبِهِ، كَحِمارٍ عَلى ظَهْرِهِ زامِلَةُ أسْفارٍ لا يَدْرِي ما فِيها، وحَظُّهُ مِنها حَمْلُها عَلى ظَهْرِهِ لَيْسَ إلّا؛ فَحَظُّهُ مِن كِتابِ اللّٰهِ كَحَظِّ هَذا الحِمارِ مِن الكُتُبِ الَّتِي عَلى ظَهْرِهِ؛ فَهَذا المَثَلُ وإنْ كانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ فَهو مُتَناوِلٌ مِن حَيْثُ المَعْنى لِمَن حَمَلَ القُرْآنَ فَتَرَكَ العَمَلَ بِهِ، ولَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ، ولَمْ يَرْعَهُ حَقَّ رِعايَتِهِ».

ولو أنَّ أهلَ العلم صانوه صانهم	ولو عظّموه في النفوسِ لعظما
ولكن أهانوهُ فهانوا ودنّسوا	مُحَيّاهُ بالأطماع حتى تجهّما

وللنجاة من هذه العاقبة الوخيمة، والموقع القبيح، هو مخافة اللّه، واقتضاء العلم العمل، والتخلق بأخلاق حملة القرآن، وتقفي السنن، وتوظيفها على النفس والجوارح، وفي الأقربين والآفاق، قال تعالى : ﴿أطيعوا اللّه واطيعوا الرسول﴾ وقال سبحانه : ﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة ﴾ وقال : ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾.

ثبتنا اللّه وإياكم على الحق والهدى، وكفانا مصارع الهوى، إنه جواد كريم .

٦٣- المبادرةُ قبل الفاجعة..!

أنت الآن ﴿ مهلة وراحة ورخاء، والعمل فيها مندوب ومأجور، فسارع فيه قبل فاجعة الموت او المرض أو الانقطاع..! وإلا تفعل حل بك الندم، وذقت مرارات الأسف..!

قال سبحانه : ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠).

مَعنىً يحمل على المسارعة، ويحض على المبادرة، والظاهر أن المراد الإنفاق في الخير على عمومه، وقيل: المراد الزكاة المفروضة، ومن للتبعيض أي أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وفي التبعيض بإسناد الرزق منه تعالى إلى نفسه زيادة ترغيب في الامتثال، حيث كان الرزق له تعالى بالحقيقة، ومع ذلك اكتفى منهم ببعضه.

(من قبل أن يأتي أحدكم الموت) بأن تنزل عليه مقدماته وأسبابه وأماراته، ويشاهد حضور علاماته ودلائله، ويتعذر عليه الإنفاق، (فيقول رب لولا أخرتني) أي يقول عند نزول ما نزل به منادياً لربه: هلا أمهلتني وأخرت موتي، فلولا هلا التي معناها التحضيض..! وكل مُفَرِّط يَنْدَمُ عِنْدَ الاِحْتِضَارِ، وَيَسْأَلُ طُولَ الْمُدَّةِ وَلَوْ شَيْئًا يَسِيرًا، يَسْتَعْتِبُ وَيَسْتَدْرِكُ مَا فَاتَهُ، وَهَيْهَاتَ! كَانَ مَا كَانَ، وَأَتَى مَا هُوَ آتٍ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ، أَمَّا الْكُفَّارُ فَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ٤٤).

ومن يفقه الدنيا ووعد الآخرة، وحضور الموت، ويشاهد الوفيات، تنبعُ في داخله ضرورةُ المبادرة، واقتفاء الخيرات، وأن المطلوب سراعٌ

بلا كسل، وانتباه بلا تباطؤ، وحياة بلا ركود، فما أتينا إلا من جهة كسلنا وفتورنا، والله المستعان .

قال صلى الله عليه وسلم : (بادروا بالأعمال).[1]

وقال في حديث آخر: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا ..).[2]

وفي القرآن: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم).

وقال سبحانه : (سابقوا الى مغفرة من ربكم) ومدح المسارعين، وجعلها سمتًا للأنبياء واتباعهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠).

جعلنا الله وإياكم منهم .

(١) مسلم (١١٨) .

(٢) مسلم(٤٩٢٧).

٦٤- كن كريمًا لا شحيحًا..!

نعمة جُلّى أن يجعلك اللّه كريمًا، ويهديك لمكارم الفضلاء، ويقيك الشح وأهله والمبتلين بغلوائه، ويجنبك مساوئهم وشرورهم، قال تعالى مبينا فضلَ الإنفاق والجود:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩) : أَيْ: مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، ومستقبله مع الفائزين المكرمين .

جاء في صحيح مسلم :

قال رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم : (إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلم ظلماتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ واستَحلُّوا مَحَارِمَهُمْ).[١]

وشبهها وارد في سورة الحشر، فقد تكررت في القرآن مرتين .

وكلا الخصلتين من بخل وشح، مرذولتان في النفوس، مبغوضتان

---

(١) مسلم (٢٥٨٨).

في المجتمعات، ولابنِ القيم رحمه الله: والفرق بين الشح والبخل أن الشح هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه.

والبخل منع إنفاقه بعد حصوله وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله.

فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقي شره، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومن وعَى المروءة وفضائل الكرم، ارتقى بنفسه، وترفع عن مستنقعات الشح وثمراته، واللؤم ورزاياه، وكان دائم التطلع إلى معالي الأمور، واقتناص الأجور، والفوز في درجات المولى في جنات

النعيم . ولذلك عقبها بقوله: ﴿إِنۡ تُقۡرِضُوا اللّٰهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضاعِفۡهُ لَكم ويَغۡفِرۡ لَكم واللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١٧).

يندب عباده ويستلطفهم للبذل والصدقة، لكأنها قرض له تعالى، وهي لهم فضلًا وحسن عاقبة، جعلنا اللّٰه وإياكم من الباذلين المبادرين .

واللّٰه الموفق.

٦٥- تقوى ذات ثمار..!

من أعظم الآداب، وأطيب الخصال، ومفتاح الجنات، وحلية الأخيار، ورداء الأطهار، ومفزعك في الشدائد والمحن وتلاعب الناس .

والنهج الأطيب في الاختلافات والنزاعات الاجتماعية والأسرية، وقد أوصى بها المولى جل وعزّ في سورة الطلاق في ثلاثة مواضِعَ:

﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكم وأقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذَلِكم يُوعَظُ بِهِ مَن كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ومَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ومَن يَتَوَكَّلْ عَلى اللَّهِ فَهو حَسْبُهُ إنَّ اللَّهَ بالِغُ أمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:٢- ٣).

﴿وَأُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق ٤)، ﴿ومَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْرًا﴾ (الطلاق ٥).

ففي التقوى تفريجٌ من كل كربة، وأرزاق بلا حدود، وتيسير في المضايق، وتكفير للسيئات، وأجور متعاظمة . قال سفيان الثوري رحمه اللّه : « أوصيك بتقوى اللّه.. فإنك إن أتقيت اللّه كفاك الناس.. وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من اللّه شيئاً.. فعليك بتقوى اللّه».

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه اللّه: « اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠) فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي، فالسيد من لازم أصلاً واحداً كل حال، وهو تقوى اللّه عز وجل: فإنه إن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة له، وإن ابتلي جملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد....».

وفي تَنْوِيعَ الوَعْدِ لِلْمُتَّقِي وتَكْرِيرَ الحَثِّ عَلَيْهِ دليل على أنَّ التَّقْوى مِلاكُ الأَمْرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعالى،وأنها خلاصة الدين القيم، وزبدة التمسك الحق، وعلق بِها سُبْحانَهُ سَعادَةَ الدّارَيْنِ، ويَدُلُّ كذلك عَلى أنَّ أمْرَ الطَّلاقِ والعِدَّةَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَحْتاجُ إلى فَضْلِ تَقْوى، لِأنَّهُ أبْغَضُ المُباحِ إلى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، لِما يَتَضَمَّنُ مِنَ الإيحاشِ وقَطْعِ الأُلْفَةِ المُمَهِّدَةِ، ونسيان المودة، وجحود الفضل بين الأزواج.

وقال يحيى بن معين رحمه اللّٰه : «واللّٰه ما ضرّ رجلاً اتقى اللّٰه على ما أصبح وأمسى» .

واللّٰه الموفق والهادي الى سواء السبيل.

٦٦- التوبة النَّصوح ..!

مهما بلغ صلاحنا، أو زادت تقوانا، فنحن في أمس الحاجة إلى التوبة والاستغفار، ومراجعة النفس والمحاسبة، فكم تبدو من عورات، وكم تحصل من تجاوزات، ولذلك يندبُ المؤمنون دائما الى تجديد التوبة وتحسين الصلة بالله، لعدم السلامة من الذنوب .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..﴾ (التحريم : ٨) أي بالغةً في النصح كأنم ينصحون أنفسهم بهذه التوبة، وتحملهم على الصدق وعدم المعاودة.

واخْتَلَفَتْ عِباراتُ السَّلَفِ عَنْها، ومَرْجِعُها إلى شَيْءٍ واحِدٍ، فَقالَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ، وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أنْ يَتُوبَ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ لا يَعُودَ إلَيْهِ، كَما لا يَعُودُ اللَّبَنُ إلى الضَّرْعِ».

وقالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «هي أنْ يَكُونَ العَبْدُ نادِمًا عَلى ما مَضى، مُجْمِعًا عَلى أنْ لا يَعُودَ فِيهِ»، وقايلك: «أنْ يَسْتَغْفِرَ بِاللِّسانِ، ويَنْدَمَ بِالقَلْبِ، ويُمْسِكَ بِالبَدَنِ».

ويُروى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْمَعُ التَّوْبَةَ سِتَّةُ أشْياءَ: النَّدامَةُ عَلى الماضِي مِنَ الذُّنُوبِ، وإعادَةُ الفَرائِضِ. ورَدُّ المَظالِمِ، واسْتِحْلالُ الخُصُومِ، وأنْ تُذِيبَ نَفْسَكَ في طاعَةِ اللَّهِ كَما رَبَّيْتَها في المَعْصِيَةِ، وأنْ تُذِيقَها مَرارَةَ الطّاعاتِ كَما أذَقْتَها حَلاوَةَ المَعاصِي.

٦٧- تفعيل العقول..!

أنعم اللّٰه علينا بعقول وحواس، لتكونَ طريقنا إلى اللّٰه، ولفهم شرعه، وفقه التعايش مع هذا الوجود، والتفكر في الملكوت العجيب، كما قال تبارك وتعالى :

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك ١٠).

لو كنا نسمعُ سماعَ من يعي، أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار، ولكن للأسف عطّلنا عقولنا، وجمّدنا جوارحنا، فانتهينا إلى أسوأ قرار، وأخبث دار. وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل وأنهما حجتان ملتزمتان.

(فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ).

فأعمل عقلك في آيات اللّٰه وتدبر كتابه، وفي ملكوت السموات والأرض، واجعلها سببا للهداية، ونفعًا بتلكم المواعظ المنشورة. ومن

الوعي إخلاص العبودية للّه، واتباع شرائعه، والسعي في مرضاته، والمواظبة على الصلوات، والحذر من معاصيه ومغاضبه.

والعقل الصحيح يحملُنا على تعلم أمور ديننا، والاستعداد للدار الآخرة، والتفكر في الانتقال من هذه الدار، وان لا نغتر بزينتها ومفاتنها . وليعلم أن تعطيل عقولنا حواسنا سبب للفتنة والانغماس الدنيوي، ونسيان موعود اللّه المحتوم، هلاك وحساب، ثم ختام وجزاء، فجنة أو نيران، واللّه المستعان .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥) .

وليُعلم أن طولَ المعاصي قد يضعفُ وظائف العقل، كما قال بعضهم : أنَّ المَعاصِيَ تُفْسِدُ العَقْلَ، فَإنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا، والمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ نُورَ العَقْلِ ولا بُدَّ، وإذا طُفِئَ نُورُهُ ضَعُفَ ونَقَصَ.

وَقالَ بَعْضُ السَّلَفِ: ما عَصى اللَّهَ أحَدٌ حَتّى يَغِيبَ عَقْلُهُ، وهَذا ظاهِرٌ، فَإنَّهُ لَوْ حَضَرَ عَقْلُهُ لَحَجَزَهُ عَنِ المَعْصِيَةِ وهو في قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعالى، أوْ تَحْتَ قَهْرِهِ، وهو مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وفي دارِهِ عَلى بِساطِهِ ومَلائِكَتُهُ شُهُودٌ عَلَيْهِ ناظِرُونَ إلَيْهِ، وواعِظُ القُرْآنِ يَنْهاهُ، وواعِظُ المَوْتِ يَنْهاهُ، وواعِظُ النّارِ يَنْهاهُ، والَّذِي يَفُوتُهُ بِالمَعْصِيَةِ مِن خَيْرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ أضْعافُ ما يَحْصُلُ لَهُ مِنَ السُّرُورِ واللَّذَّةِ بِها، فَهَلْ يُقْدِمُ عَلى الِاسْتِهانَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ، والِاسْتِخْفافِ بِهِ ذُو عَقْلٍ سَلِيمٍ؟ .

واللَّهُ الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٦٨- حب المساكين..!

يُبتلى بعضهم بحب المال، فيتوحش فيه حتى يكره الفقراء والمساكين، ويضيقُ من أشكالهم، ويصرخ من طلباتهم، فهم كأصحاب الجنة الجشِعين، الذين خالفوا طريقة أبيهم في الجود والبر، فيكرم ويساعد ويجبر، فعوقبوا بسوء قصدهم..!

قال سبحانه: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾ (القلم:٢٣-٢٥).

وقد صح من دعاء نبينا صلّى اللّه عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ).[١]

وحب المساكين من خصال البر، ويدخل من جملة فعل الخيرات، وإنما أفرده بالذكر، وهو ما يُسمّى بعطف الخاص على العام لشرفه

(١) الترمذي (٣٢٣٣).

وقوة العناية والاهتمام به، فقد سأل النبي صلى اللّٰه عليه وسلم ربه فيما يُروى عنه:(اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين) .

وانما خصهم بالحب دون غيرهم لأنهم أصل الحب في اللّٰه تعالى؛ حيث ليس عندهم من الدنيا ما يوجب محبتهم لأجله مالًا وجاها مثلا، فلا يحبون إلا للّٰه عز وجل ، والحب في اللّٰه من أوثق عُرى الإيمان، وهو أفضل الإيمان، قال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم (من أحب للّٰه، وأبغض للّٰه، وأعطى للّٰه، ومنع للّٰه، فقد استكمل الإيمان) . فاحرص عبد اللّٰه على محبتهم والإحسان اليهم، ولا تغضبهم فتهلك، قال تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...﴾.

واللّٰه الموفق.

٦٩ - تذكرة للمتقين..!

ليكن لك من القرآن واعظاً ومعرفة، وتذكارا وتذكرة، ومنهجا وهداية، فما انزل إلا لذاك، ولا تعبدنا اللّه به الا لمنافع بمواعظه، فهو التذكرة حين الغفلة، والموعظة عند المصيبة، والهدايةُ ساعات الاضطراب، والشافي عند الأسقام والأوهام..!

يقول تبارك وتعالى مادحًا القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة: ٤٨).

والمَعْنى: أنَّهُ مُذَكِّرٌ لِلنّاسِ بِما يَغْفُلُونَ عَنْهُ، وبرهانٍ لهم عند التشكك، وموئل عند التخاصم، ومنهج يعصمهم من الضلالة، لما فيه مِنَ العِلْمِ بِاللَّهِ وصفاته وأحكامه، ودلائل قدرته وتعظيمه. فالقُرْآنُ في ذاتِهِ تَذْكِرَةٌ لِمَن يُرِيدُ أنْ يَتَذَكَّرَ سَواءٌ تَذَكَّرَ أمْ لَمْ يَتَذَكَّرْ، وقَدْ سمي القُرْآنِ بِالذِّكْرِ في آياتٍ عَدِيدَةٍ مِنها قَوْلُهُ تَعالى في سُورَةِ

طَهَ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٣) وقَوْلُهُ ﴿وقالُوا يا أيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ (الحجر: ٦).

والمرادُ بِالمُتَّقِينَ: المُؤْمِنُونَ الخاشعون، فَإِنَّهم المُتَّصِفُونَ بِتَقْوى اللَّهِ، لِأَنَّهم يُؤْمِنُونَ بِالبَعْثِ والجَزاءِ دُونَ المُشْرِكِينَ. فالقُرْآنُ كانَ هادِيًا إيّاهم لِلْإيمانِ كَما قالَ تَعالى ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) وكُلَّما نَزَلَ مِنهُ شَيْءٌ أَوْ تَلَوْا مِنهُ شَيْئًا ذَكَّرَهم بِما عَلِمُوا؛ لِئَلّا تَعْتَرِيَهم غَفْلَةٌ أَوْ نِسْيانٌ، فالقُرْآنُ تَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ فِي الماضِي والحالِ والمُسْتَقْبَلِ، جعلنا اللّه واياكم من أهله وخاصته.

٧٠- الصبر الجميل..!

لما كانت الحياة ظرفا للأحداث والبلايا، كان الصبر لزامًا لها،

ويكون جميلًا فيها، غير مكترث ولا جازع..!

كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا﴾ (المعارج: ٥).

(فاصبر) يا محمد على صور التكذيب، ومواقف السخرية، وصنوف العناد لما جئت به... (صبراً جميلاً) لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير اللّٰه. وهذا معنى الصبر الجميل. وقيل هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري بأنه مصاب. قال ابن عباس: «في الآية لا تشكو إلى أحد غيري» وكأن الصبور يفوض أمره إلى اللّٰه وهو يتجرع مرارة الصبر، ولا يبالي بسخريات البشر وبلياتهم.

والْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا أُصِيبَ بِمَكْرُوهٍ فِي نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَنْ يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ، وَالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ لِمُجْرِيهِ

عَلَيْهِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَيَقْتَدِي بِنَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ وَسَائِرِ النَّبِيِّينَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. فقد قال يعقوب في محنته (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).

وإنما يستساغُ الصبر بحسن الإيمان وصدق التوكل، والعزيمة النافذة، وتذكر ثواب الصابرين، وتربية النفس عليه، واستلذاذ المشاق، قال في الحديث : (ومن يتصبر يصبّره الله).

وفي القرآن فضله وفضل أهله ودرجاتهم الرفيعة، ومنازلهم العالية ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الزمر: ١٠.

وقال أبو حاتم رحمه الله : (الصبرُ على ضروب ثلاثة: فالصبر عن المعاصي، والصبر على الطاعات، والصبر عند الشدائد المصيبات، فأفضلها الصبر عن المعاصي، فالعاقل يدبر أحواله بالتثبت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم الصبر على المراتب

التي وصفناها قبل، حتى يرتقي بها إلى درجة الرضا عن اللّه جل وعلا في حال العسر واليسر معًا).

- وقال زياد بن عمرو رحمه اللّه : (كلنا نكره الموت، وألم الجراح، ولكنا نتفاضل بالصبر). وفي الصحيحين : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(١).

فيه ما كان عليه الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم من الحلم والتصبر، والعفو والشفقة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا صلى اللّه عليه وسلم مثل هذا يوم أحد .

واللّه الموفق

(١) البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢).

٧١- الاستغفار للوالدين..!

من أعظمِ صور البر والإحسان للوالدين الدعاء لهم استغفارا وترحما، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا﴾ (نوح: ٢٨).

خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، فهما سبب وجودك بعد اللّه، الأمُّ تتت وربت، والأب عانى وتعب، ثم عمم الدعاء، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: خسارا ودمارا وهلاكا.

وقد أُمرنا نحن بالدعاء كما في موضع آخر.. ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٤).

وحقوق الوالدين تتنوع وأجلُّها الدعاء لهم والاستغفار كما هو فعل الأبرار العقلاء، والأنبياء الاصفياء، اذ كيف لهم أن يتجاهلوا دور آبائهم في ذلك، لا سيما بعد الوفاة ومغادرة الحياة ..! فلا اقل

بعد ذلك من الدعاء لهم، وإذا تيسرت الصدقة وزيارتهم في المقابر فهو متأكد حسن . يقول صلى اللّه عليه وسلم : عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّه عنه، أن رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ ؛ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).[1]

قال العلماء : معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة ؛ لكونه كان سببها ؛ فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف .

فاجعل ك لوالديك نصيبا من دعائك في ساعات الإجابة: كالسحر والسجود وساعة الجمعة وحال السفر والمطر، وفي المواسم الفاضلة، واصدق اللّه في الاستغفار لهما، وسؤال الرحمة والمنازل الحسنة في جنات النعيم .

واللّه الموفق .

(١) مسلم (١٦٣١).

٧٢- اجتنابُ الشطط..!

لا يجوز بحال من الأحوال القول على اللّه بغير علم، أو وصفه بما يستقبح وما لا يليق، بل الواجب تعظيمه وتنزيهه سبحانه من كل عيب وآفة، كما قال مؤمنو الجن وإنكارهم على السفهاء الضالين:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الجن: ٥) .

يَعْنُونَ بِهِ مُضِلَّهم ومُغْوِيَهم ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أيْ: قَوْلًا ذا شَطَطٍ وجور، وأصْلُهُ مُجاوَزَةُ الحَدِّ، والمُرادُ مِنهُ نِسْبَةُ الصّاحِبَةِ والوَلَدِ إلى اللَّهِ تَعالى: ﴿وأنّا ظَنَنّا أنْ لَنْ تَقُولَ الإنْسُ والجِنُّ عَلى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الجن: ٥ أيْ: فِي نِسْبَةِ ما لَيْسَ بِحَقٍّ، إلَيْهِ سُبْحانَهُ. وهو اعْتِذارٌ عَنِ اتِّباعِهِمُ السَّفِيهَ فِي ذَلِكَ، لِظَنِّهِمْ أنَّ أحَدًا لا يَكْذِبُ عَلى اللَّهِ، حَتّى تَبَيَّنَ لَهم بِالقُرْآنِ كَذِبُ السَّفِيهِ وافْتِراؤُهُ.

ثمّ قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أيْ:

مَا حَسِبْنَا أَنَّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ يَتَمَالَئُونَ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ فِي نِسْبَةِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ. فَلَمَّا سَمِعْنَا هَذَا الْقُرْآنَ وَآمَنَّا بِهِ، عَلِمْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فِي ذَلِكَ.

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنُ، وقد ظهرت له معالم الوحدانية، ودلائلُ القدرة، وجلالة الرب تبارك وتعالى من تعظيم اللّه وتقديسه، وتنزيهه عن البشر وصفاتهم وعن الشبيه والنظير، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الشورى:١١ .

وقال سبحانه : (فلا تضربوا للّهِ الأمثال) سورة النحل :٧٤.

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضى اللّه عنه قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ

أَنْ يَقُولَ إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُؤًا أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ ٣ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

(١) المسند(٨٤٠٩) البخاري (٤٦٢٠) و النسائي (٢٠٧٨).

٧٣ - تهجدُ ميمون..!

لقيام الليل فوائد وثمرات، ومحاسن وملذات، وهنا ينبه القرآن على فضله ووقعه على الروح، لا سيما من استيقظ متأخرا، ووافق بركة الوقت والتنزل الإلهي، يقول تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦).

(إن ناشئة الليل) أي ساعاته وأوقاته، لأنها تنشأ أولاً فأولاً، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا﴾

أي أشد موافقة بين القلب والسمع والبصر واللسان، لانقطاع الأصوات والحركات فيها، فيستجمع القائم خاطره، ويعي كلامه، وينتفع بعبادة ربه تعالى .

ولذلك لا يليق بمؤمن أن يهجر قيام الليل، وليكن من ادبه الوجودي ركعاتٌ يقوم بها من الليل، ولو وترِ يسير، وفي الحديث: (اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا).[١]

---

(١) البخاري (٩٩٨) مسلم (٧٥١).

وفي ذلك قوة له ونشاط، وصحة واعتقاد، وثبات وترسيخ، لأنه يستطعم القرآن، ويقف على عجائبه، ويستشعر روائعه، ويعيش حلاوةً لا يكاد يخلص إليها بشر، الا من وفقه اللّه لمثل ذلك..!

وفي ذلك التهجد الميمون، دواء للشُّكاة من صعوبة فهم القرآن، وعدم الانتفاع به. ولذلك لابد لنا من ليال في الأسبوع نجدد لها الإيمان، ونصلحُ القلوب، ونتدبر القرآن، ومن المغانم أيضًا حديثُ النزول الإلهي المقدس، كما في المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ ».[1]

---

(١) البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

٧٤- الإقبال لا الإعراض..!

سيق الإعــراضُ عـن المـواعـظ صفة للمشركين، فـالحـذر أن يشـابه اهل الايمان أولئك، ويتحلون بسمتهم في التباعد عن موارد الخيـرات، ومنافذ النور، يقول سبحانه : ﴿فَما لَهم عَنِ التَذْكِرَة مُعْرِضِينَ﴾ (المدثر: ٤٩).

والتذكرة التذكير هي مواعظ القرآن، وما احتواه من عجائب الـكلام، وروائـع القصص، وجميل البينات، ولكنهم وللأسف لا يطيقون صوتها ولا شكلها ..!

ثم شبههم في نفورهم عن القرآن بالحمر فقال: (كأنهم حُمُر مستنفرة فرت من قسورة) كَأَنَّهُمْ فِي نِفَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ حُمُر مِنْ حُمُرِ الْوَحْشِ إِذَا فَرَّتْ مِمَّنْ يُرِيدُ صَيْدَهَا مِنْ أسد ونحوه..!

وبعض أهل الإسلام يكتفي بأركان الإسلام صلاةً وصياماً، ولا يخشع أو يلين لموعظة او درس ومحاضرة، ويضيقُ منها اشد الضيفة، ويحمل لها ابلغ الحمولة...! ودعواه يسر الدين، وعدم الإملال، وكثرة المشاغل، فهؤلاء من صنوف المعرضين، والله المستعان.

وفي الصحيحين عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ، فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ

فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ » .

وفي الحديث جوازُ حلقِ العلم والذكر في المسجد، واستحباب دخولها، ومجالسة أهلها، وكراهة الانصراف عنها من غير عذر، واستحباب القرب من كبير الحلقة ليسمع كلامه سماعا بينا، ويتأدب بأدبه، وأن قاصد الحلقة إن رأى فرجةً دخل فيها، وإلا جلس وراءهم، وفيه الثناء على من فعل جميلا ؛ فإنه صلى اللّه عليه وسلم أثنى على الإثنين في هذا الحديث، وأن الإنسان إذا فعل قبيحا ومذموما وباح به، جاز أن ينسب إليه، واللّه أعلم .

(١) البخاري (٦٦) مسلم (٢١٧٦).

٧٥- التفكر الوجودي..!

كلما ضاق المرءُ من الحياة، أو استثقل التكاليف فليتذكر نعمةَ اللّه، وحقيقة وجوده وخلقه، يقول تعالى :

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (القيامة:٣٧) تدرج في الخلق، وأطوار جاءت بخلقه العجيب، وجعل اللّه له أدوات الفهم والتعلم . ثم صار بشرًا سويًا، له قوة وحركات، وسلطان وتجاوزات...!

فمن لم يتركه وهو نطفة سُدى، بل قلب النطفة وصرفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة ثم قلب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها، حتى انتهى كمالُها بشرا سويا، فكيف يتركه سدى لا يسوقه...؟!

فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها

دلّته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها، على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه، وأنه الملكُ الحق المتعالى عن أن يخلقها عبثا ويتركها سدى بعد كمال خلقها .

فما كان لمراحل تتم بهذه العظمة، إلا ووراءها إلهٌ عظيم، وتشريع حكيم، وهو عدم تركه سُدى وعبثا ، بلا هدف ولا رسالة، كما قال عز وجل : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا) والعبث إنما هو الجهل بهذه الحكمة، وعدم الاتعاظ، وهجران العبودية، وتخليد النظرة الغربية تجاه الوجود والغاية منه، والعيش سبهللاً وضياعًا .. واللّه المستعان .

٧٦- وفاء وخوف..!

هنا أدبانِ عظيمان، لا يفَوّتُ المؤمن العاقل منها شيئًا، يوفي بنذره وعهده مع اللّه، ويتهيب ذلك اليوم الموعود وشدائده وأهواله، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (الإنسان: ٧).

(يوفون بالنذر) والمعنى يوفون بما أوجبه اللّه عليهم من الطاعات، صلاةً وصياماً، وقربةً وتعاملاً .

وقيل : يوفون إذا نذروا في حق اللّه سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى يوفون بما أوجبوه على أنفسهم..!

وإنما ترسخ ذاك عندهم احسن تدينهم وصحة توحيدهم، وتعظيمهم ربهم وخالقهم .

ومن أدبهم أيضًا : تخوفٌ وترقب، وامتثال واستعداد (ويخافون

يوماً كان شره مستطيراً) المراد به يوم القيامة، ومعنى استطارة شره : فشوه وانتشاره غاية الانتشار، فثمة أهوالٌ لا توصف، وشدائد لا تنتهي، وأحداث جسام، وقوارع عظام، ولا منجاة منها إلا بحسن العمل، ودوام المحاسبة، والتفكر في الدار الآخرة. كما قال تعالى في مدح بعض اصفيائه : (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) (ص:٤٧) .

وزاد سبحانه من جمالهم وطيبِ معادنهم:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩)﴾ (الإنسان ٧-٩). أي يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف، الطعام مع حبه لديهم وقلته عندهم، وشهواتهم الشائقة، ومثله قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقيل على حب الإطعام لرغبتهم في الخير . وهذا من أبلغ صور الإكرام والإيثار.

وفي التزامنا بعهودنا تعظيم للّه، وفي خوفنا من القيامة، تهمم واستعداد، وفي بذلنا لإخواننا تواصل ورحمةً، ومكارم لا حدود لها، ولا تطيبُ الحياة الدنيا، إلا بهده الآداب الثلاثة . واللّهُ الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٧٧- الامتنان بالماء الفرات..!

غالبُ الكون نعمٌ ومسخَّرات من اللّه تعالى، ومحاسنُ وهبات من الواحد الأحد، ومن ذلك نعمة الماء المستعذب، والطيب الفرات، تشربه في تلذذ واستمتاع، وسعادة وانشراح، يقول تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات ٢٧). أي سخرنا لكم جبالًا مرتفعات، وأجرينا لكم ماءً فراتاً عذبًا تشربون منه وتستمعون . كما قال سبحانه : قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. فلا تحس فيه التعب، ولا يخالطك الكدر والردى .

وجعل اللّه في الماء حياة البشر ولذتهم، وسلامة حياتهم، ومنافع لا تنقضي، وأنعم اللّه في عصورنا المتأخرة، ما ينقي هذا الماء ويصفيه ويجعله باردًا هنيئًا، . كان زمزم مكة تفضله وأطيبه..!

وهي نعمٌ حقها الحمدُ والشكر، وعدم الإسراف فيها والاستكبار.

جاء في سُنَنِ الترمذي رحمه اللّه: عن أبي هُريرة رضي اللّه عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ - ؟ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟).[(١)]

ومع هديه صلى اللّه عليه وسلم تجاه هذه النعم حمد مسديها وتوفيرها وتوقيرها، جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا».[(٢)]

فاحفظوا هذا النعم، واحمدوا اللّه عليها، وتذكروا أقوامًا ومجتمعات حُرموا من تلكم النعم وجمالها، وبرودتها وطيبها، واللّه المستعان.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ..!

(١) الترمذي (٣٣٥٨).

(٢) مسلم (٢٧٣٥).



٧٨- النهار المعاشي..!

والله الموفق .

من حكمته تعالى أن سخر النهارِ للناس عملا وحركة، وجعله مضيئًا يصيبون به معاشهم وأرزاقهم، وفي ذلك حفز على الحركة والاستثمار، وترك الكسل والهوان، فيستنبط منها فضل الحركة والعمل، والنشاط اليومي. قال تبارك وتعالى :

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبأ : ١١).

(وجعلنا النهار معاشاً) أي وقت معاش وانطلاق، والمعنى أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا لمعاشهم وسعادتهم، فكما أن الليل لباس وستر وراحة، فالنهار ضياء وعمل واجتهاد .

فيُكرهُ استغراقه في النوم والكسل، وقد قال في موضع آخر: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها) أي طرقها . وقلبُ

الليل والنهار في العمل خلاف الفطرة والصحة..!

وبين الليل والنهار تقابلٌ عجيب، فَنِعْمَةُ اللَّيْلِ راجِعَةٌ إلى الرّاحَةِ والهُدُوءِ، ونِعْمَةُ النَّهارِ راجِعَةٌ إلى العَمَلِ والسَّعْيِ؛ لِأَنَّ النَّهارَ يَعْقُبُ اللَّيْلَ، فَيَكُونُ الإنْسانُ قَدِ اسْتَجَدَّ راحَتَهُ واسْتَعادَ نَشاطَهُ، ويَتَمَكَّنُ مِن مُخْتَلِفِ الأعْمالِ بِسَبَبِ إبْصارِ الشُّخُوصِ والطُّرُقِ، ومعاينة المهن والمنافع .

ونستفيدُ هنا أيضًا فضل الإسلام في تعظيم قيمة العمل والاعتماد على الذات، واستنفاد القوة في السعي والحركة، وأن المؤمنَ العامل الجاد، خير من المؤمن النائم الكسول، وقد صلى اللّه عليه وسلم : (ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي اللّه داود كان يأكل من عمل يده). [١]

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر

(١) البخاري (٢٠٧٢).

ذهبًا ولا فضة».

وفي القرآن: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧).. أي لطلب المعاش والسعي في الرزق، ومُرادُهُمُ اسْتِبْعادُ الرِّسالَةِ المُنافِيَةِ لِأَكْلِ الطَّعامِ وطَلَبِ المَعاشِ عَلى زَعْمِهِمْ فَكَأَنَّهم قالُوا: إنْ صَحَّ ما يَدَّعِيهِ فَما بالُهُ لَمْ تَأْلَفْ حالُهُ حالَنا ولَيْسَ هَذا إلّا لِعَمَهِهِمْ ورَكاكَةِ عُقُولِهِمْ وقُصُورِ أبْصارِهِمْ،

٧٩- المقامُ التعظيمي..!

والله المستعان .

من تفكرَ في الخالق وعظمته، وتأمل شرعه وحكمته، وعاين وعدَه ووعيده، لم يتجاسر على مخالفته، وكان لطاعته أقرب، وفي معصيته أخوف وأبعد، فهو كما قال تعالى :

﴿وأمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهى النّفْسَ عَنِ الهَوى فَإنّ الجَنّةَ هي المَأْوَى﴾ (النازعات ٣٧-٤١).

فيقع في قلبه توقيرُ الله ومخافته، والذي ينتهي به لجنات النعيم، والمأوى الكريم . قال ابن القيم رحمه الله:

وهو مَقامُ الرَّبِّ عَلى عَبْدِهِ بِالاِطِّلاعِ والقُدْرَةِ والرُّبُوبِيَّةِ.
فَخَوْفُهُ مِن هَذا المَقامِ يُوجِبُ لَهُ خُشُوعَ القَلْبِ لا مَحالَةَ، وكُلَّما كانَ أشَدَّ اسْتِحْضارًا لَهُ كانَ أشَدَّ خُشُوعًا، وإنَّما يُفارِقُ القَلْبَ إذا غَفَلَ عَنِ اطِّلاعِ اللَّهِ عَلَيْهِ، ونَظَرِهِ إلَيْهِ». ويحتمل مقامه لقاؤه به يوم القيامة، وكلاهما محتمل.

بل قد لا يتحقق الثاني إلا بيتحقق الأول من المراقبة والمحاسبة .

فمن ربى نفسه على هذا السلوك استشعر عظمة اللّٰه، وأدى واجباته، وراقبه على كل حال، ولم يطع هواه، ولذلك قال . (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى) أَيْ زَجَرَهَا عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَحَارِمِ. وَقَالَ سَهْلٌ رحمه اللّٰه : « تَرْكُ الْهَوَى مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى» . وقَالَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ مَسْعُودٍ :« أَنْتُمْ فِي زَمَانٍ يَقُودُ الْحَقُّ الْهَوَى، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَقُودُ الْهَوَى الْحَقَّ فَنَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ» .

وإنما فاز الأنقياء والاتقياء، لما بلغوا هذا المقام، ونالوا جوهره، ولامسوا معناه، فظلوا معظمين لربهم، ومحافظين على عبادته، ومتباعدين عن حدوده ..! وكلما لاحت لهم صبوة، تذَكّروا اللّٰه فإذا هم مبصرون، ولربهم ذاكرون، ومن خشيته مشفقون، جعلنا اللّٰه وإياكم منهم، والحمدللّٰه رب العالمين.

٨٠- طلب التزكية..!

إن في ديننا تزكيةً فاخرة، لا نظير لها، ولا شبيه لها في معاليها وثمراتها، فهنيئا لمن وجدها، وانتفع بدينه وقرآنه، وبرزت عليه علاماتها وسماتها، ولذلك من تعلمه بصدق نال شيئا من تلكمُ التزكية، التي هي مغنم ورادها وطلابها، قال تعالى في توصيف الاعمى القادم للتعلم، وعوتب في ذلك رسولُنا الكريم : ﴿وما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ (عبس: ٣).

أي لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك، وما يلامسه من جماليات القرآن، ومكارم الشريعة، فإنها تزكية من لا قيمة له، وأنوار من لا هداية له، كما قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ من زكاها﴾ (الشمس: ٩).

قال ابن القيم رحمه الله : « المعنى: قد أفلح من كبَّرها وأعلاها

بطاعة اللّٰه، وأظهرها، وقد خاب وخسر من أخفاها، وحقرها وصغرها بمعصية اللّٰه.

وأصل التدسية: الإخفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ فالعاصي يدسّ نفسه بالمعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند اللّٰه، وانقمع عند الخلق.

فالطاعة والبر: تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره للّٰه تعالى.».

فمن أجلِّ سمات هذه الشريعة تزكيتُها لأصحابها، وتهذيبها لأخلاقهم، وحملانهم على العادات الطيبة، والمكارم النبيلة، والتزكية طريق إلى الانتفاع والتذكر، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ (عبس: ٤) أيّ:

يَعْتَبِرُ ويَتَّعِظُ فَتَنْفَعُهُ المواعظ، وتزجره النصائح. وتَقْدِيمُ التَّزْكِيَةِ عَلى التَّذَكُّرِ مِن بابِ تَقْدِيمِ التَّخْلِيَةِ عَلى التَّحْلِيَةِ.

وليستشعر المؤمنُ وهو يتعلم هذا الدين المتين، ما يثمره عليه من هبات ومحاسن، وسببُها حسن التدينِ والعمل، وكلما زاد رسوخه العملي، زاد انتفاعه السلوكي والإيماني، والمحكُ في ذلك مجاهدة النفس، والتزكيـــة لا تكون إلا بمجاهدة النفس ..يقول تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤).. وجهاد النفس أصعب بكثير من مجاهدة العدو الخارجي، لأنك قد تتغلب على نفسك مرة ومرات. لذا حض الله عليها، فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وقد قال علي رضي الله عنه، وتروى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدوا عدوكم).

والله الموفق.

٨١-قصد الاستقامة..!

كل من قرأ القران، وعاين أفضاله، ولامس حدائقه، أدرك سره وجوهره، وعلم أنه طريق الهداية، ومنبع الاستقامة، ولذلك كان لزاما على كل مؤمن عاقل، الانتفاع به وجعله سببا في استقامته، وإخلاص القصد في ذلك. قال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨): أي هَذَا الْقُرْآنُ ذِكْرٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ، يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَتَّعِظُونَ، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أَيْ: مَنْ أَرَادَ الْهِدَايَةَ فَعَلَيْهِ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ مَنجاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ، وَلَا هِدَايَةَ فِيمَا سِوَاهُ، والاستقامة إنما يحبها من انشرح لها، وعاين بركاتها، ولذلك علينا تحسين القصد تجاه القرآن وتعلمه، كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

فمن نوى الخير به هداه الله وشرح صدره، ووفقه لأقوم

سبيل، وأهـدى طريق، قال تعالى : ﴿مَن يُـرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الانعام: ١٢٥). فخذوا هدايات القرآن، وافرحوا بمواعظه، واستثمروا حدائقه وجمالياته...!

فـالقـرآن كـتـابٌ عجيب، عليه منائر الـهـدايـة، واشـعـاعـات الاستقامة، يحمل قارئه على محبته، وسلوك جادة الخير والنور والصواب، ويُروى عن الإمام أحمد رحمه اللّه : (يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير).

فالنية الحسنة تجاه القرآن، والإرادة الطيبة لقضاياه وبيناته فتوحات من اللّه، ودلائل على الاستقامة ومحبتها ..! واللّه الموفق .

٨٢- حذر الاغترار..!

يغتر بعضهم بسماحة الإسـلام، وسعة رحمات اللّه، فيترك العمل، وينغمس في أتون المعاصي والغفلات، ولا يقيم للمواعظ القرآنية والزواجر التوجيهية، وزنًا ولا بالا..!

ولذلك حذرنا اللّه هذه الساعة التفريطية، والمفهوم الخاطئ...!

قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ؟ : هَذَا تَهْدِيدٌ وترهيب، أيْ: أيُّ شَيْءٍ خَدَعَكَ وجَرَّأكَ عَلى عصياننا وارْتِكابِ ما لا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ عَزَّ وجل، وقد جاءتك الشرائع، وسمعت الزواجر والنواهي . . وقَدْ عَلِمْتَ ما بَيْنَ يَدَيْكَ وما سَيَظْهَرُ مِن أعْمالِكَ وعاقبتها عليك، فتنصرف لبحار المغفرة، وتهمل دركات النيران وأهوالها...!

فليسَ هو كما يتوهمه بعض الناس مِنْ أَنَّهُ إرْشادٌ إلَى الْجَوَابِ؛

حَيْثُ قَالَ: ﴿الْكَرِيمِ﴾ حَتَّى يَقُولَ قَائِلُهُمْ: غَرَّهُ كَرَمُهُ. بَلِ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَا غَرَّكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ-أَيِ: الْعَظِيمِ-حَتَّى أَقْدَمْتَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَابَلْتَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ؟ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ابْنَ آدَمَ، مَا غَرَّكَ بِي؟ ابْنَ آدَمَ، مَاذَا أجبتَ الْمُرْسَلِينَ؟» .

وفي ذلك حفزٌ على التوازن السلوكي في العبادة وفي فهم الشريعة، وأنك كما ترجو رحمة اللّه وتستشرفُ كرمه، خف عقابه، واحذر مغاضبه، فليس اللّه بغافل عما تعملون..! وفي الحديث الصحيح عن أنس رضي اللّه عنه: أنَّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم دخل على شابٍّ وهو في الموتِ فقيل كيف تجِدُك قال أرجو اللّه وأخافُ ذنوبي فقال صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم : (لا يجتمعان في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطنِ إلَّا أعطاه اللّهُ ما يرجوه وأمَّنه ممَّا يخافُ).

فعلى المؤمن أن يُحسِنَ الظَّنَّ باللّهِ تعالى، ومع ذلك لا يَأمَنُ

(١) الترمذي(٩٨٣).

مَكْرَه، بل يَسْعى في الجَمعِ بينَ الاثنَين حتَّى يَلْقى اللَّه تعالى، وألَّا يَغُرَّه عمَلُه، بل ينبغي الخوفُ مِن عقابِ اللَّهِ مع رجاءِ ثوابِه وعفْوِه وفَضلِه. كما قال سبحانه : ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾ (السجدة: ١٢٥).

٨٣- التنافس الحقيقي..!

اذا حُدِّثت عن معالي الأمور، ووصفت لك محاسن الجنان أو روائع المنازل، وما يغري ويرفع ويخطف، فلا تتردد في المشاركة، وحمل النفس على المسارعة والتنافس..!

فهلا رأيت تنافسنا في زهرات الدنيا، فالآخرة أحق بذلك وأولى، قال عز وجل : (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) سورة المطففين : فقد عد لهم جمالًا ورحيقاً، وملذات، ثم شجعهم تعالى: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) أي فليرغب الراغبون، وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل، وانما تدرك تلك بالهمم العالية، والتنافس الجاد، كما في قوله (لِمثل هذا فليعمل العاملون) .

ومن المؤسف جدنا في الدنيا، وتنافسنا في ملهياتها، واجتهادنا فيما لا ينفع أحيانا ..! فكيف المخرج والعمل..؟! نقول: صحح

أهدافك، ورتب أولوياتك، وراجع حساباتك، وتطلع فيما عند اللّه، وليكن سلوكك في مرضاة اللّه.. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) وفي قصة سليمان : ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ (النمل: ٣٦).

وتعلم من سيرة رسول اللّه، وأخبار السلف الصالح، وكيف سمت هممهم، وتفكروا فيما عند اللّه تعالى، وآثروا الباقي على الفاني ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان:٥) .

وفي الحديث الصحيح قال عمر لما شاهد فقرَّ رسول اللّه عليه الصلاةُ والسلام: (فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكَ » . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ كِسْرَى، وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَلَكَ الآخِرَةُ ؟ ».

(١) البخاري (٢٤٦٨) مسلم ١٤٧٩).

٨٤-العبد الساجد ..!

في الدين معالم وشرائع، تحمل أهلها على الخضوع لله، والاندماج في العبودية للواحد الأحد، فيعرف العبد ربه، ويحبه لعظمته ونعمه، ودليل ذلك كله القرآن ومغانمه، والكتاب ودلائله، والتنزيل وعجائبه، يقول سبحانه مستنكرًا على النفوس المستكبرة تاخرها، وايثارها الكفر على الإيمان، يقول سبحانه :

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (الانشقاق:٣٧).

يعني : أيّ شي يمنعهم من الإيمان بعد ما وَضَحَتْ لَهُمُ الآيَاتُ الايمانية، وَقَامَتِ الدَّلَالَاتُ الربانية . وسطعت انوار القران وحججه وجمالياته (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون).

والمُرادُ الخُضُوعُ والِاسْتِكانَةُ.

وقِيلَ المُرادُ نَفْسُ السُّجُودِ المَعْرُوفِ بِسُجُودِ التِّلاوَةِ. وكل خضوع للّه سيحمل صاحبه على السجود واغتنام الأجر، وقد سجد صلى اللّه عليه وسلم في آيات التلاوة المعروفات، وندب أمته إلى ذلك، جاء في صحيح مسلم رحمه اللّه : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ، فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ «أو» يَا وَيْلِي، أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَأَبَيْتُ، فَلِي النَّارُ).[1]

وفي هذا دليل على فضل سجود التلاوة، والأصح سنيته، وأنه يتأكد في مواضِعَ وهذا منها، واللّه تعالى أعلم.

وإنما يسجد العبد لخالقه ورازقه، ولمن ظهرت دلائل قدرته، وبانت معالم ملكوته، تبارك اللّه أحسن الخالقين.

واللّه الموفق والهادي الى سواء السبيل.

(١) مسلم (٨١).

٨٥- وعي النُّذر والأحاديث..!

ما قص القرآن قصصه، ولا سطر أخباره، أو بثَّ أحاديثه، إلا للعظة والاعتبار، ولذلك استغرقت قدرا عجيبا من الكتاب المبين، والتنزيل الحكيم، كما قال سبحانه:

﴿هَلۡ أتاكَ حَدِيثُ الجُنُودِ فِرۡعَوۡنَ وثَمُودَ﴾ (البروج ١٧-١٨) أي هل بلغك أخبارهم وكيف تجندوا ضد الدعوات، ومارسوا كل صنوف الصد والتنكيل، ولكن اللّه كان لهم بالمرصاد ..! وقد عاشوا أحقابا ضد الدين، واستحلوا الكفرَ والتكذيب ..!

وهذا يعطينا درس في الابتلاء التاريخي للدعوات الحقة، وأن الصالحين في نكال، ولا يزال المبطلون بكيدهم وجنودهم في حرب شعواء ضدهم..! وبرغم كل تلكَ الجنود المجندة، والجهود المحتشدة، هزمهم اللّه، وكسر شوكتهم، واظهر جنده وعباده المؤمنين، كما قال

في خاتمة السورة بمعلم التفاؤل وعدم التخوف..(واللّه من ورائهم محيط). أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك لا عاصم لهم منه،فأين سيفرون، ومن الذي سينجيهم من بأس اللّه..؟!

ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال:

(بل هو قرآن مجيد) أي عالٍ في الشرف والكرم والبركة والنفع، معجز لا يستطيع بشرٌ مضاهته، أو تكذيبه وانتقاصه .

وخليقٌ بالمؤمن وهو يسمع هذه القصص والأحاديث أنْ يعيها ويحسب حسابها، وينتفع بدروسها، ولا يشابههم في صفاتهم، فما سيقت إلا للاعتبار..! وكل نذر القرآن يجب علينا تأملها والانتفاع بها، والتزود من دروسِها وعظاتها..(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

اللهم عظةً واعتبارًا، لا غفلةً وانشغالا .

٨٦ - الحافظُ المحيط ..!

حينما يستشعرُ العبدُ أنه محفوظ، محاط بأفعاله، مرصود في تصرفاته، يتولد في قلبه المراقبة والخشية، وهذه حقيقة لابد أن يعتقدها العبد في حياته، فيعيش وهو مراقب لربه، مراعٍ لحرماته، كما قال تعالى:

﴿إِن كُلُّ نَفسٍ لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ﴾ (الطارق: ٤).

وهم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، وقيل الحافظ هو اللّه عز وجل.

لقوله (وإن عليكم لحافظين) وقوله (ويرسل عليكم حفظة) وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه) والحافظ في الحقيقة هو اللّه عز وجل كما في قوله (فاللّه خير حافظاً) وقوله

(وكان اللّه على كل شيء رقيباً)، وحفظ الملائكة من حفظ اللّه واطلاعه على عباده .

وفقهُ ذلكَ يحمل العبد على التوقي في أعماله، واستشعار عظمة اللّه، وإحاطته بعباده، ويثمر ذلك أيضا الحياء وحفظ الجوارح، وهذا خلق عظيم يتخلق به الأتقياء، والحافظون لحدود اللّه . فاحفظ اللّه يحفظكَ، واتق اللّه يوفقك، وحاذر معاصيه، فتلقى في أسفل سافلين، قال في الحديث في فضل الحَياءِ وحقيقته : (استحيوا مِن اللّه حقَّ الحياء. قال: قلنا: يا رسول اللّه إنَّا لنستحيي، والحمد للَّه. قال: ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء مِن اللّه حقَّ الحياء: أن تحفظ الرَّأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتتذكَّر الموت والبِلَى، ومَن أراد الآخرة، ترك زينة الدُّنيا، فمَن فعل ذلك، فقد استحيا مِن اللّه حقَّ الحياء).

واللّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) الترمذي (٢٤٥٨).

٨٧- المؤمن المذكِّر..!

من امتلك أدوات التذكير، فلا يحرمن نفسه شرف الذكرى الحسنة، والنصيحة الطيبة، ولينضم لقوافل الدعاة والناصحين، وليطهر البقعة من بلايا الجهل والضلالات، قال تبارك وتعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٤). وهو خطاب للنبي صلى اللّٰه عليه وسلم، وتدخل فيه أمته، وكل غيور حاز زمام النصح والقدرة على البلاغ .

ومعناها: أي عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين، قال الحسن: تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر.

وقيل : إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع..!

وقال بعضُهم: المَدْعُوّ ثلاثةُ أقْسامٍ: مَقْطُوعٌ بِنَفْعِهِ، ومَقْطُوعٌ بِعَدَمِ نَفْعِهِ، ومُحْتَمَلٌ، وقالَ: مَحَلُّ التَّذْكِيرِ ما لَمْ يَكُنْ مَقْطُوعًا بِعَدَمِ نَفْعِهِ، كَمَن بَيَّنَ لَهُ مِرارًا فَأعْرَضَ، كَأبِي لَهَبٍ، وقَدْ أخْبَرَ اللّٰه عَنْهُ بِمَآلِهِ فَلا نَفْعَ ﴿فِي﴾ تَذْكِيرِهِ.

وانتشارُ الخير وهدايةُ الناس إنما تقوم بجهود المخلصين من غيارى المسلمين، فيبادرون ذكرى، ويجدون نصحًا، ويحرصون بلاغا، فتثمر الدعوات فضلا من اللّٰه، وتعم الخيرات، رحمةً من الباري تعالى، فلا يصح تكاسلنا في زمن التيسير، ولا يسوغ إهمالنا في وقت الكشوفات والقرية الواحدة ..! بل يتعين البلاغ على الجميع، قال سبحانه: (ومن أحسن قولًا من دعا إلى اللّٰه وعمل صالحًا، وقال إنني من المسلمين) وكأن ذاك أشرف عمل وأزكى سلوك، وفقنا اللّٰه وإياكم لما يحبه ويرضاه .

٨٨- داعية بلا سيطرة..!

كم هو جميلٌ عملنا الدعوي، ومواعظنا الميمونة، وغيرتنا على الشعائر، ولكنها لا تعني امتلاك قلوب الناس، أو تحويلهم القاطع، أو هدايتهم النهائية، بل قلوبهم بيد اللّه، وما نحن سوى وسائل وأسباب، كما قال سبحانه:

﴿فَذَكِّرْ إنّما أنتَ مُذَكِّرٌ لَستَ عَليهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية : ٢١-٢٢).

فَذَكِّرْ-يَا مُحَمَّدُ-النَّاسَ بِمَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ؛ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي لست مسلطا عليها، ولا قاهرا تقهرهم، ولَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ لتردعهم، أو ذلك الذي تُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ.

فالدينُ النصيحة، والقلوب بيد الخالق العظيم .

ولذلك جاء في الحديث: (بلغوا عني ولو آية) وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا،

وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾.

ونتعلم هنا ضرورة رحمة الدعاة وترفقهم بالناس، وأن مواد التأثير في الرفق والحكمة، لا القوة والسيطرة، وانك تدعو بما علمك اللّه، ولا تستطيع هداية الجميع، كما قال سبحانه: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء). وقال سبحانه: (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).[1]

ويستفيد الدعاة من ذلك التركيز على البلاغ الدعوي، وايصال الحق، وليس بحث النتائج والتنقيب عنها، فالأمر كله للّه، ونواصي الخلائق بين يديه سبحانه وتعالى، وفي الحديث الصحيح: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»).[2]

(١) مسلم (٢١) وسنن الترمذي (٣٣٤١) وسنن النسائي الكبرى (١١٦٧٠).

(٢) مسلم (٢٦٥٤).

٨٩- إكرامُ الأيتام..!

ثمةَ في المجتمع طبقاتٌ مستضعفة كالأيتام والمساكين، ولما هُضمت حقوقهم عبر التاريخ، نبّه اللّه تعالى عليهم، وأنكرَ على المجتمعات المتوحشة ظلمهم وتعطيل حقوقهم، كما قال عز وجل ﴿كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا (١٩)﴾ (الفجر ١٧–١٩).

وفيها ردعٌ لهم على صنيعهم السابق وتصورهم تجاه الرزق الرباني، وتذكيرهم بما يحصل عندهم من الظلم الاجتماعي، وإهمال الفئات المستضعفة، والتي قد تكون سابقا في رزقهم وديمومة معايشهم، ولكن الإنسانَ مغرور، وفي امتلاكه للمال مجنون، يطغيه المال، فينسيه حق الإخوة والقرابة والرحمة .

ولذلك كان من أسوأ صفات الأثرياء نسيانهم حق إخوانهم الأيتام، وعدم تحاضهم على إطعام المسكين، وهم من هم في الضعف والحاجة والمسكنة...!

وفي الإسلام أوجب الله الزكاة، وفرض الرحمة، وندب في المعروف، وحرّض على الإحسان، وتحقيق العدالة المجتمعية، ولا يصلحُ حالنا إلا بالتراحم والتكافل..(إنما المؤمنون إخوة) سورةُ الحجرات. وفي الحديث: قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ». وَقَرَنَ بَيْنَ إصبعيه: الوسطى والتي تلي الإبهام» .

وفي هذا دليل على حرمة الطغيان بالمال، وأن الله استودعنا إياه لنقيمه في مستحقيه، ومنهم أيتام بؤساء، ومساكين منبوذون، وفقراء مشردون .. فهلّا اعتنينا بهم، وقمنا على إكرامهم..؟! وإذا وفقنا لذاكَ بورك لنا، ولامسنا السعادة، وبلغنا الحياة الطيبة، نسأل الله من فضله ..!

والله الموفقُ .

(١) البخاري (٦٠٠٥).

٩٠- التواصي بالصبر والمرحمة..!

قد تكون صابرا رحيما في ذاتك، فتكسب من وراء ذلك حسناتٌ ومراتب، ولكنك حين تجعلها منهاج حياة، وتوصي بها الآخرين، وتتفاعل مجتمعيًا بها نصحا وتذكيرا، تكون في أرفع المنازل، وتحصد أعلا الدرجات، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ البلد: ١٧. أيْ: مع تلك الصفات الحسنة فهو مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ صَالِحًا، الْمُتَوَاصِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى النَّاسِ، وَعَلَى الرَّحْمَةِ بِهِمْ والإرفاق. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «لَا يَرْحَمِ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ».[١]

(١) مسلم (٢٣١٩).

مَنْ لَمْ يَرْحم صَغِيرَنَا ويَعْرِف حَقَّ كَبِيرِنَا، فَلَيْسَ مِنَّا»[1]

صبروا وتصابروا، ورحموا وتراحموا، وكان سمتاً لهم في تعاملاتهم وشؤون حياتهم، والدينُ لا يستقيم بدون الصبر والرحمة، الصبر لتبلغَ الطريق، والرحمة لاكتساب الآخرين، وصبغ روح الإسلام بحياتهم الاجتماعية، ولذلك أثّر الأنبياء، وبلغ المصلحون غايتهم بهاتين الخصلتين، وورثوها للأتباع، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وفي التواصي بهما حفزٌ للآخرين، وإشاعة لمكارم الأخلاق، وتحقيق للعدالة، وتجسيد للإخوة، وفي الآخرة فوز ونور وكرامات.. (أولئك أصحاب الميمنة) أي أصحاب جهة اليمين أو أصحاب اليمين أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، فيسلمون المخاطر، ويأمنون المخاوف، والله ولي التوفيق.

(١) أبو داود (٤٩٤٣).

٩١ - عاقبةُ الذنب..!

لا يظنُّ أحدكم أنّ الذنوبَ تمر بكم مرور الكرام، أَو أن لذاتها لا تنتهي لمرارات..كلا.. بل إن لها مَقاتل وبليات، وما هلكت الأمم والأفراد، ولا نقصت الأرزاقُ والبركات إلا بسبب الذنوب والخطيئات، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الشمس ١٤).

(فدمدم عليهم ربهم) أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب (بذنبهم) الذي هو الكفر والتكذيب والعقر، وحقيقةُ الدمدمة تضعيف العذاب وترديده..! وعمّهم بها فاستوت في صغيرهم وكبيرهم..!

والمرادُ بهم قومُ ثمود أصحاب النبي صالح عليه السلام، كذبوه وعاندوه، وقتلوا الناقة وفصيلها، وانبعث اشقاهم وتقواهم منعةً فقتلها، فعذبهم اللّه ونكل بهم، وأعاد ذلكَ إلى طغيانهم وذنوبهم ..!

ونتعلمُ من ذلك ضرورة توقي الذُّنوب، والتفكر في عواقبها، وأن لها نتائج وثمارا قاتلة . قال العلامةُ ابن القيم رحمه اللّه : (الذنوبُ جراحات ورب جرح وقع في مقتل، وما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة القلب، وأبعد القلوب من اللّه القلب القاسي). وقد ذكر العلماء آثارها في نقص الصحة والرزق، وتدهور الجسد والقلب، وضيقة النفس وتكدرها، وصيرورة النفس في وضع بئيس، وصح قول النبي صلى اللّه عليه وسلم: (إن العبد ليحرم الرزقَ بالذنب يصيبه).

واللّه الموفق.

٩٢- المُبتغي الصادق..!

ما أجملَ العملَ للّٰه، وابتغاء مرضاته، والعيش بعيدا عن المباهاة والتفاخر الزائف، وأن تكون نياتنا خالصةً للّٰه العلي العظيم، كما فاز بها الفرسان الأتقياء، قال تعالى : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (الليل: ١٩-٢٠).

فَعَلَ ذَلِكَ لِابْتِغاءِ وجْهِ رَبِّهِ سُبْحانَهُ وطَلَبِ رِضاهُ عَزَّ وجَلَّ لا لِمُكافَأةِ نِعْمَةٍ، ولا حرصًا على الظهور، او طمعًا في الشهرة، ولكن لتعظيم اللّٰه، ومحله في قلبه.

وَلَسَوْفَ يَرْضى) أيْ سَوْفَ يُعْطِيهِ فِي الْجَنَّةِ مَا يُرْضِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُعْطِيهِ أَضْعَافَ مَا أَنْفَقَ.

وهي وإن كانت نازلةً في الصديق رضي اللّٰه عنه، إلا أنها عامة، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ويروى عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ

رضي اللّه عنه: أنَّ أبا بَكْرٍ لَمّا اشْتَرى بِلالًا بَعْدَ أنْ كانَ يُعَذَّبُ قالَ المُشْرِكُونَ: ما فَعَلَ أبُو بَكْرٍ ذَلِكَ إلّا لِيَدٍ كانَتْ لِبِلالٍ عِنْدَهُ، فَأنْزَلَ اللّهُ تَعالى: ﴿وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزى﴾ ﴿إلا ابْتِغاءَ وجْهِ رَبِّهِ الأعْلى﴾ أيْ: إلّا طَلَبًا لِثَوابِ رَبِّهِ.

ويتعلم المسلمُ من ذلك حب العمل الخالص، والإرادة الصادقة، والتفكر في الدار الآخرة، وأن مدائح الدنيا لا تضاهي ثوابات الآخرة، ومعالم زينتها، ولذلك كلما صدق العبد بورك له في عمله، وتقبل منه، وكان عاقبة سعيه أجرًا وخيرًا، وأحبه الناس، وانقادوا لكلامه وأخلاقه. وليكن ديدن المؤمن ذلك في صلاته وقرباته، وفي تلاوته وحسناته، يبتغي بها العلي الأعلى، ويتباعد عن السلوك الأردى، واللّه المستعان.

٩٣- اللينُ المجتمعي..!

ثلاثةُ آدابٍ متوالية، احتوتها سورة الضحى، تعلمنا طريقة التعايش، وكيف نحتوي الآخرين، ونتلاين معهم بلا قهر ولا غلظة.

يقول تبارك وتعالى : ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ (الضحى ١-١١) .فيها لين وتواضع واعتراف .

أَيْ: كَمَا كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَاكَ اللَّهُ فَلَا تَقْهَرِ الْيَتِيمَ، أَيْ: لَا تُذِلَّهُ وَتَنْهَرْهُ وَتُهِنْهُ، وَلَكِنْ أحسِنْ إِلَيْهِ، وَتَلَطَّفْ بِهِ.

وقيل: كُنْ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ.

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ أَيْ: فَلَا تَكُنْ جَبَّارًا، وَلَا مُتَكَبِّرًا، وَلَا فَحَّاشا، تهينه وترده باقبح الصفاتِ.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أَيْ: وَكَمَا كُنْتَ عَائِلًا فَقِيرًا فَأَغْنَاكَ اللَّهُ، فَحَدِّثْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وهي تشمل النبوة والأرزاق وكلّ الخيرات، وانشر فضل اللّه عليك، فهو أدوم للنعم، وأبقى للشكر، لأن في ذكرها شكرًا لمسديها .

قال ابن القيم رحمه اللّه : وقد أمر اللّه تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾

واللّه تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وعن سفيان الثوري رحمه اللّه قال: إن داود عليه الصلاة والسلام قال :،الحمد للّه حمدا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى اللّه إليه يا داود أتعبت الملائكة.

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله.

والفرقُ بين التحدث بنعم اللّٰه والفخر بها: أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها، ومحض جوده وإحسانه فهو مثنٍ عليه بإظهارها، والتحدث بها شاكرا له ناشرا لجميع ما أولاه، مقصود بذلك إظهار صفات اللّٰه ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى اللّٰه بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها.

وأما الفخر بالنعم: فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر، فيركب أعناقهم ويستفيد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة.

قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخا، وأن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم اللّٰه، والكبر على عباد اللّٰه، ويفخر بعطية اللّٰه، والهون في غير ذات اللّٰه. نعوذ باللّٰه من حال أولئك.

واللّٰه الموفقُ.

٩٤- فأل الأعسار..!

مهما تراكمت الشدائدُ، أو زادت الأعسارُ، فليكن بالك متفائلًا، فما استعسرت إلا لتفرج، ولا أُحكمت إلا لتتحل، وهكذا طبيعة الحياة، ابتلاء وعسر، ومشاق وشدة، يحلها المؤمن بذكره لربه وتفاؤله، ويزيلها بصدقه وانشراحه، أما سمعتَ قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح ٥-٦).

أي أن مع الضيقة سعة، ومع الشدة رخاء ومع الكرب فرجاً، وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر، وكل شديد يهون، وكل صعب يلين، ومع بمعنى (بعد)، وفي التعبير بها إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر كأنه مقارن. ويُروى مرفوعًا : « لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فأنزل اللّه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ . وقيل : (ولن يغلب عسر يسرين) لأنه منكّر ومفخم، فيعم كل عسر وبلاء .

وغلبه أيضًا، لأن الرحمة غلبت الغضب، والعفو سبق العقوبة، والنعمة تقدمت المحنة، والخير في الصفات والأفعال، والشرُّ في المفعولات لا في الأفعال.

فأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها خيرات، فإن ألم الحيوان لم يعدم بألمه عافية من ألم هو أشد من ذلك الألم، أو تهيئة لقوة وصحة وكمال، أو عوضا لا نسبة لذلك الألم إليه بوجه ما.

فآلام الدنيا جميعها نسبتها إلى لذات الآخرة وخيراتها أقل من نسبة ذرة إلى جبال الدنيا بكثير.

وكذلك لذات الدنيا جميعها بالنسبة إلى آلام الآخرة.

والله سبحانه لم يخلق الآلام واللذات سدى، ولم يقدرهما عبثا.

ومن كمال قدرته وحكمته أن جعل كل واحد منهما يثمر الأخرى.

أفاده العلامة ابن القيم رحمه الله.

ومثل هذه النصوص تصنع في قلوبنا التفاؤل والشرح، ونبذ

اليأس والإحباط، وتحملنا على التعلق بالله ودوام ذكره وشكره، وأن الله لا يقضي للمؤمن إلا خيرا، وفي شدائده افراح ونعم قد لا يدركها للوهلة الأولى، فليحمد الله وليصبر، وليتذكر سادته من الأنبياء كيف صبروا واحتملوا، حتى بلغوا الدرجات العلى، والمنازل الفضلى، والله الموفق والمستعان .

٩٥- الخَلقُ القويم..!

كما جمّلك في خلق قويم، وصورة حسنة، وشكل بهيج، فجمّلْ أخلاقك، وحسّن أفعالك، قال عز وجل : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤) .

أي في أحسن صورة وهيئة، وشكل معتدل القامة، مستوي الخلقة كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه، والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرًا في القرآن لمكان العبرة بها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته وعلى المبدأ والمعاد.

وفقه ذاك يحفزنا لشكر الله على هذه النعمة، واستخدام هذه

الجوارح في طاعة الله، وعدم تغيير خلق الله، فلا تمثيل ولا سخرية، ولا استهزاء ولا عنصرية، وهذه آداب يجهلها كثير منا...! فكل بني آدم خلفهم عز وجل في تقويم حسن، وشكل طيب، واحتقارهم يعرضك للعقوبة والآثام، وإذا لم تحترم الخلق فاحترم الخالق، وفي الحديث الصحيح : (بحسب امرئٍ من الشر ان يحقر أخاه المسلم).

ومن اوجدك هذا الايجاد العظيم، قادر على رزقك وكفالتك، ثم موتك وبعثك بعد ذلك، فلم الإنكار والجحود، ومشابهة الجاحدين، ولذلك ختمها بقوله: ﴿فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ (التين: ٧) يَعْنِي بَعْدَ هَذِهِ الحُجَجِ والدلائل القطعية على القدرة، ومُحالٌ أنْ يَحْتَجَّ عَلى قَوْمٍ كانُوا مُنْكِرِينَ مَعْنًى مِنَ المَعانِي بِما كانُوا لَهُ مُنْكِرِينَ، وإنَّما الحُجَّةُ عَلى كُلِّ قَوْمٍ بِما لا يَقْدِرُونَ عَلى دَفْعِهِ مِمّا يُعايِنُونَهُ ويُحِسُّونَهُ، أوْ يُقِرُّونَ بِهِ وإنْ لَمْ يَكُونُوا لَهُ مُحِسِّينَ. وإذْ كانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وكانَ القَوْمُ

لِلنّارِ الَّتِي كانَ اللَّهُ يَتَوَعَّدُهم بِها فِي الآخِرةِ مُنْكِرِينَ، وكانُوا أهْلَ الهَرَمِ والخَرِفِ مِن بَعْدِ الشَّبابِ والجَلَدِ شاهِدِينَ، عَلِمَ أنَّهُ إنَّما احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِما كانُوا لَهُ مُعايِنِينَ مِن تَصْرِيفِهِ خَلْقَهُ ونَقْلَهُ إيّاهم مِن حالِ التَّقْوِيمِ الحَسَنِ، والشَّبابِ والجِلْدِ إلى الهَرَمِ والضَّعْفِ وفَناءِ العُمْرِ وحُدُوثِ الخَرِفِ، واللَّه المستعان .

٩٦- قراءة وجيزة..!

إسلامنا رائدُ العلم والاستنارة، ومنبع الوعي والابتكار، ودليلنا نص القراءة فيه، وأول التنزيلِ ، ومفتاح الوحي الإلهي .. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ العلق ١-٥ .

قال ابن القيم رحمه الله: اعلم أن أول سُورَة أنزلها الله في كِتابه (سُورَة القَلَم) فَذكر فِيها ما من بِهِ على الإنسان من تَعْلِيمه ما لم يعلم فَذكر فِيها فَضله بتعليمه وتفضيله الإنْسان بِما علمه إياه وذَلِك يدل على شرف التَّعْلِيم والعلم فَقالَ تَعالى ﴿اقْرَأ باسم رَبك الَّذِي خلق).

فافْتتحَ السُّورَة بالأمر بِالقِراءَةِ الناشِئَة عَن العلم وذكر خلقه خُصُوصا وعموما فَقالَ ﴿الَّذِي خلق خلق الإنْسان من علق اقْرَأ ورَبك الأكرم﴾

وَخص الإنسان من بَين المَخْلُوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدّالَّة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكَمال رَحمته وأنه لا إلَه غَيره ولا رب سواهُ وذكر هُنا مبدا خلقه من علق لكَون العلقَة مبدأ الأطوار الَّتِي انْتَقَلت إليها النُّطْفَة فَهي مبدأ تعلق التخليق.

ثم أعاد تعالى الأمر بِالقِراءَةِ مخبرا عَن نَفسه بِأنَّهُ الأكرم وهو الأفعل من الكَرم وهو كَثْرَة الخَيْر ولا أحد أولى بذلك مِنهُ سُبْحانَهُ فَإن الخَيْر كُله بيدَيْهِ...ثمَّ ذكر تَعْلِيم الإنسان خُصُوصا فَقالَ ﴿علم الإنْسان ما لم يعلم﴾

فاشتملت هَذِه الكَلِمات على أنه معطي الموجودات كلها بِجَمِيعِ أقسامها، فإن الوُجُود لَهُ مَراتِب أربعة:

أحداها مرتبتها الخارجية المَدْلُول عَلَيْها بقوله ﴿خلق﴾

المرتبَة الثّانِيَة الذهنية المَدْلُول عَلَيْها بقوله ﴿علم الإنْسان ما لم يعلم﴾

المرتبَة الثّالِثَة والرّابِعَة اللفظية والخطية، فالخطية مُصَرح بها في قَوْله ﴿الَّذِي علم بالقلم﴾

واللفظية من لَـوازِم التَّعْلِيم بالقلم فَـإن الكِتابَة فرع النُّطْق، والنطق فرع التَّصَوُّر...!

فاستشعر هنا شـرفَ العلم والـقـراءة، وخذ نصيبك منها ولو شيئًا وجيزا، أو نزرًا يسيرا، ليصحَّ دينك، ويستقيم عقلك، وترتقي أخلاقك، وتزين فعالك..! فاقرأ من حدائق القرآن، وفي روائع السنن، وعبر التاريخ، ودروس الزمان، وأدوية القلوب، فإنك لا تزالُ بئيسا ما لم تقرأ وتعش بين الكتب والأسفارِ، وفقنا اللّٰه وإياكم ..!

٩٧- تفاضل الأوقات ..!

كما تفاضلَ البشرُ، وتشكلت الأمم، وتباينت الصفات والأخلاق، كذلك الأزمنة والاوقات، تفاضلت واختلفت، كما قال تعالى منبها على فضل ليلة القدر في رمضان، وندبنا الى استغلالها ..

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ (القدر:٣).

ليلة القدر خير من ألف شهر) وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، قال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، واختار هذا الفراء والزجاج، وذلك أتى الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع، فلما جعل اللّٰه الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة.

وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر لأن العرب تذكر الألف

في كثير من الأشياء على طريق المبالغة، وقيل وجه ذكر ألف شهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد اللّه ألف شهر، فجعل اللّه لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم، عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها.

وهذا يعلِّمنا الاهتمامَ بالوقت، وتعظيم الزمان، وتحريك الهمم تجاه المواسم الفاضلة، والأزمنة الشريفة. وكذا هو ديدن العقلاء من أهل الإسلام، يعظمون الوقت، ويلتمسون الحسنات، ويسارعون في طلب الفضائل، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

فهنا تعظيم وحرص، وسباق ومبادرة، وتهمم وانطلاق..!

وقس على بقية المواسم في الفضل والشرف والمضاعفة، كعشر ذي الحجة والاشهر الحرم، ويوم عرفة وعاشوراء المحرم،

والساعات الفواضل كأوقات الإجابة للدعاء، من نحو ادبار المحاولات والسجود، وثلث الليل الآخر، وساخة الجمعة ونظائرها في الفضل والذكر والاشتهار .

وإنما يعرف ذلك بالنص الشرعي، والوحي الصادق، والله الموفق.

٩٨- إخلاص الدين..!

ليس للمسلم شرفٌ في العبادة إلا بالإخلاص، فهو روح العمل والطاقة الحافزة، ومعيار القبول، وبه يكرم المرء أَو يهان، فكم من جهود بُعثرت، وأعمال ضاعت بسبب فقدان الإخلاص العبادي، وذهابها لمقاصد دنيوية زائفة، سيبكي عليها المرء في القيامة ...!

يقول تعالى كاشفًا هذا المعيار:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة: ٥).

أي حال كونهم جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين.

وهذه الآية دليلٌ صريح على وجوب النية في العبادات لأن الإخلاص في العمل من عمل القلب، وقيل: الإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثواباً، ..!

وقوله ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: معرضين ومائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة بالذكرمع أنهما داخلان في قوله ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلةٌ إلى الجحيم.

فنتعلم من هذه الحجة فضل الإخلاص، وحتميته العملية، لتصح العبادة، ويزكو القلب، ولا يتم غالبا للعبد الا بالمجاهدة، وتعظيم الخالق، واحتقار الدنيا، والإلحاح في الدعاء، وعبودية الخلوات، وإن له لحلاوةً من ذاقها عرف حقارة الدنيا، وخيبة العاملين لها، والله المستعان.

٩٩- مثقالُ الذرة..!

لاتحقرنّ من الخير شيئًا، ولا تزدري الحسنات ولو هانت، وسارع ولو كان نزرًا محدودًا، فاللّه يثيبك ويكافئهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨)

وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرًا.

وَسَمّى النَّبِيُّ صلى اللّه عليه وسلم هَذِهِ الآيَةَ جامِعَةً فاذَّةً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

أي عامة فذة في بابها.

«وَسُئِلَ عَنْ الحُمُرِ؛ فَقالَ : (ما أُنْـزِلَ عَلَيَّ فِيها إلّا هَـذِهِ الآيَةُ الجامِعَةُ الفاذَّةُ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، ومَن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).[1]

وكل عمل شرعي هجره الناس أو تقالوه بادر اليه، وكنْ فيه من المسارعين، وتشبث فيه تشبث المؤمنين الجادين (فاستبقوا الخيرات). وفي الحديث الصحيح : (بادروا بالأعمال). وفي أزمنة تسابق الناس على الدنيا وهجرانهم أعمال الآخرة، تنزل لها أنت وشمر لها بلا هوادة، فهو خير ساقه اللّه إليك، واللّه الموفق .

(١) ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ.

١٠٠ - جحود النعم..!

كم من نعمٍ بسطَها اللّه تغشانا في أنفسنا وأبنائنا، وإذا نزلت ببعضنا محنة نسي ذلك كله، وجحد نعمة اللّه عليه، كما وصفهم اللّه، وهي خصلة الكفار، ويتورط فيها بعض المسلمين، فيعدد المحن وينسى حلاوة النعم، قال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ (العاديات ٦-٨).

بِمَعْنَى: أَنَّهُ لِنِعَمِ رَبِّهِ لَجَحُودٌ كَفُورٌ.

والكنود هو الكفور وقيل هو البخيل الذي يمنع رفده ويجيعُ عبده، ولا يعطي في النائبة، وقال الحسن هو اللوام لربه يعد المصائب وينسى النعم.

فحاذر أن تكون كنودا جحودا لنعمة اللّه عليك، أو بخيلا سلبيًا مع إخوانك المسلمين، فلا غوث ولا إكرام، ولا نجدة أو تراحم، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (من لا يرحم لا يرحم). (واللّه كريم يحب الكرماء).

١٠١ - تفقدُ الموازين..!

الحسابُ والمجازاة يوم القيامة بالموازين، والموازين حقها الأعمال وتقصد الحسنات، وفي التنبيه القرآني عليها يجعل المرء يتفكر فيها والاستعداد لها، قال تبارك وتعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (القارعة :٦).

بِأَنْ تَرَجَّحَتْ مَقادِيرُ أَنْواعِ حَسَنَاتِهِ، وتكاثرت خصاله، وعظمت مساعيه.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ﴾ في عَيْشٍ. ﴿راضِيَةٍ﴾ ذاتِ رِضًا أَوْ مرضية.

ووعي الميزان يعني حسن العمل، والحرص على الخيرات، والاستكثار من الباقيات الصالحات. وكما يحرص التجار والمستثمرون على ميزان الدنيا، وزيادة العوائد فعليهم العناية بميزان الآخرة، فهي محك النجاح، ومعيار السلامة، كما قال

سبحانه: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة). وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. والأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»

والميزان حقيقي؛ له كفتان ولسان، و توزن به الحسنات والسيئات يوم القيامة، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، السلف الصالح .

وهنالك أعمال مباركة يتضاعف وزنها، فعلينا العناية بها كما تقدم، ومثله، ما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (من شهد الجنازة حتى يصلي فله قيراط، ومن شهد حتى تدفن كان له قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين).

ونصّ بعض أهل العلم أيضا : أن العامل يوزن مع عمله، كما في البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة - رضي اللّه عنه - أن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند اللّه جناح بعوضة» وقال: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ الكهف: ١٠٥ .

١٠٢ - سؤالات النعيم..!

كم من نعيم نتقلب فيه، وكم من هبات نستطعمها، وكم من محاسن نلهو بها، ولا نتفكر في سرها وشكرِ مسديها والمحافظة عليها، وتجاهلنا السؤال الصعب عنها في القيامة، كما قال سبحانه:

﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٧).

أي عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة،

وقيل: يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به،

والاصح: إن اللّه سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه، من طعام او شراب وملابس ومراكب، وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد، لأن تعريفه للاستغراق .

وقد اعتبر صلى اللّه عليه وسلم الماء البارد، الذي ينتشر هذه الأيام في بلداننا من النعيم المسؤول عنه يوم القيامة . عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «أن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نُصحَّ لك جسدك ونرويك من الماء البارد»[1]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: « خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول اللّه، قال والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: مرحباً، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم أين فلان؟ فقالت: انطلق يستعذبُ لنا الماء إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصاحبيه

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وهو حديث صحيح .

فقال الحمد للّه ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا، وأخذ المدية فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إياك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ».

وفي هذا دليل على أن النعيمَ شامل ومتنوع لكل نعم الحياة وهباتها، واللّه الموفق .

١٠٣ - اجتناب الخسارة..!

كلنا يكره الخسارة والخيبة، ويتمنى الفوز والربح والارتقاء، ولا يتم ذلك إلا بصفات أربع ذكرها القرآن، وعلمنا اللّه حقيقتها في سورة العصر العظيمة: ﴿والعَصْرِ إنّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ إلّا الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وتَواصَوْا بِالحَقِّ وتَواصَوْا بِالصّبْرِ﴾ (العصر ١-٣).

فهنا قسم عظيم بالزمان والدهر، أن كل إنسان خاسرذاهب سعيه، مترد عمله، والخاسر ضد الرابح.

والخسار مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم، وخسار السعادة وفقدان الحياة الطيبة، وهو محسوس لدى كل كافر وضال ومنحرف . فالسورة ترشدنا إلى تجنب الخسارة، ووعي الوجود والغاية من خلق الإنسان، وأن كل مفرط مسرف خاسر وهالك، الا من رحمه اللّه بهدايةٍ وعقل بصير .

وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم اللّٰه الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر اللّٰه بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق اللّٰه وحق عباده، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة اللّٰه، وعن معصية اللّٰه، وعلى أقدار اللّٰه المؤلمة.

قالوا: «لو أن الناس أخذوا كلهم بهذه السورة لوسعتهم أو كفتهم، كما قال الشافعي رضي اللّٰه عنه: «لو فكر الناس في سورة والعصر لكفتهم».

فبالأمرين الأولين، يكملُ الإنسانُ نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمـور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم كما أفاده علماؤنا رحمهم اللّه.

قال ابن القيم رحمه اللّه : وهـذا نهايةُ الكَمال فَـإن الكَمال أن يكون الشَّخْص كامِلا ـ فِي نَفسه مكملا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية فصلاح القُوَّة العلمية بالإيمان وصَلاح القُوَّة العملية بِعَمَل الصّالِحات، وتكميله غَيره بتعليمه إياه وصَبره عَلَيْه، وتوصيته بِالصبرِ على العلم والعَمَل.

فَهَذِهِ السُّورَة على اختصارها هي من أَجْمَعْ سور القُرْآن للخير بحذافيره، والحَمْد للّه الَّذي جعل كِتابه كافِيا عَن كل ما سواهُ، شافيا من كل داء، هاديا إلى كل خير.

١٠٤ - لا تكن همّازا لمازا..!

اللسان ومنطقه نعمة اللّه عليك، فصُنه ولا تضر نفسك به، فينقلب عليك سوءًا وخيبة واثاماً، ولذلك توالت الآيات، وتعاظمت التحذيرات من آفاته وضياعه خلاف المنهج السديد، قال تعالى :

﴿وَيلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة : ١).

أي خيبة وهلاك وخزي لكل هماز لماز، أي طَعَّانٍ مِعْيَابٍ.. وقيل: يَهْمِزُهُ وَيَلْمِزُهُ بِلِسَانِهِ وَعَيْنِهِ، وَيَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ، ويطعنُ عَلَيْهِمْ.

وفي صون اللسان صيانة للقلب، وراحة النفس، وضبط السلوك، ومسارعة في القربات، وانشغال بالذات، وتبتعد عن السيئات، قال صلى اللّه عليه وسلم: (من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت). وفي الوعيد له تحذير من مزالقه، والانصياع لدعاة السوء والمهرجين الذين يستغلون الوسائل الحديثة في التمثيل والاضحاك، ولذلك خلفه السلف خوفًا شديدًا، وبرهنوا باصدق

العبارات في ذلك : قال زيد بن أسلم عن أبيه قال: « رأيت أبا بكر الصديق رحمه اللّه آخذ بطرف لسانه فقال: هذا أوردني الموارد».

وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: « من كثُر كلامه كثُر سقطه». وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه: «لا خير في فضول الكلام».

وقال عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه: «البلاء موكل بالقول».

وله أيضًا : « والذي لا إله غيره ما على الأرض شيء أحوج من طول سجن من لسان» .

ومن خطا هذا اللماز ركونه الدنيوي وغروره الشهواني، كما قال عز وجل : (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أي يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت، وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد في عمره.

وقيل هو تعريض بالعمل الصالح وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال، والواجب الاعتناء به لا بالمال والغرور الدنيوي،

فإنه زائل لا محالة، قال صلى اللّه عليه وسلم : (لو كانت الدُّنيا تعدِلُ عند اللّهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَى كافرًا منها شرْبةَ ماءٍ).[1]

والمعنى: أنَّ الدُّنيا عند اللّهِ هيِّنةٌ دَنيئةٌ، ولا تُساوي عند اللّهِ أيَّ شيءٍ، ولا تُساوي حتَّى جَناحَ ذُبابةٍ، ولو كانتْ تُساوي عند اللّهِ أيَّ شيءٍ ما رزَق الكافِرَ فيها شيئًا، ولا حتَّى سقاه شَربةً مِن ماءٍ؛ لأنَّه لا يَستَحِقُّ شَربةَ الماءِ هذه، ولأن الدنيا عديمة القيمة، سيئة المحتوى، ومن ثم فالسعي فيها ضياع وهلاك، واللّه المستعان .

(١) الترمذي (٢٣٢٠).

١٠٥ - العلمُ الاعتباري..!

الذي يملأ القلب يقينا بقدرة اللّه ونصره لعباده، وانتصاره من المجرمين، وتدميره لقوتهم وجيوشهم، كما صنع بأصحاب الفيل، وعدوانهم على البيتِ الحرام، يقول تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَابِ ٱلۡفِيلِ﴾ (الفيل: ١).

أي: أما رأيت يا محمد وأتباعه، من قدرة اللّه وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله اللّه بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم.

وقد أخزاهم تعالى وأذلهم وجعل كيدهم في تضليل وذهاب، ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَابِ ٱلۡفِيلِ﴾ لقد جعل اللّه تدبيرهم السيئ لهدمها في ضياع، فما نالوا ما تمنّوه من صرف الناس عن الكعبة، وما

نالوا منها شيئًا، لا عاد بالويل والثبور، وخسران الأرواح والدور .جزاء وفاقًا. وقد ارسل تعالى عليهم طيرا أبابيل، أي جماعات جماعات كانت تشاهد وهي تخرج من البحر يشاهدها رجال مكة المعتصمون بقمم الجبال إذ تمر فوقهم، وهي تحمل حجارة من سجيل، كل طائر يحمل ثلاثة أحجار كالحمصة والعدسة، واحدة بمنقاره واثنتين بمخلبيه كل واحدة في مخلب ترميهم بها، فتتفتت لحومهم وتتناثر فجعلهم كعصف مأكول، أي كزرع دخلته ماشية فأكلت عصفه أي ورقه وكسرت قائمه وهشمته فكانت آية من آيات اللّه تعالى.

وفي هذا علم يقيني اعتباري، يعتقده المؤمنون، وأن ما وقع لهم سيقع لغيرهم إذا عاندوا واستكبروا، ولذلك قال في أولها (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) فقد راينا ذلك حقا وعلمناه، وحفظ اللّه وبيتهورد كيد المجرمين، والحمد للّه على نصره وتدبيره.

واللّه الموفقُ.

١٠٦ - موجباتُ النعم ..!

من تفكر في نعم اللّه عليه، وإغداقها على الناس، والمسبغات في كل مجال، والمواهب النازلة عليهم ظاهرا وباطنا، يدرك الإله الحق المستحق للعبادة، وأنه اللّه الواحد الأحد، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن.

كما قال سبحانه في الامتنان على قريش والعرب ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٣-٤).

فرغد الرزق والعيش الهنئ، والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر اللّه تعالى، والانقياد لحكمه وشرعه .

والطعام والأمن حاجتان ضروريتان للعيش والسلام الاجتماعي، وقد يسرها اللّه بفضله وحكمته، وضمان استدامتها بالعبودية الحقة، وشكر المولى، والمحافظة على مقوماتها، كما عز وجل:

(وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمةَ اللّٰه لا تحصوها، إن الإنسان لظلوم كفار).

وقد قيل إن سياق السورة دال على ما حصل لأصحاب الفيل ونهايتهم البئيسة، فقد حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ ﴿لإيلافِ قُرَيْشٍ﴾ أَيْ: لِائْتِلَافِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي بَلَدِهِمْ آمِنِينَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَأْلَفُونَهُ مِنَ الرِّحْلَةِ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ، وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ فِي الْمَتَاجِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى بَلَدِهِمْ آمِنِينَ فِي أَسْفَارِهِمْ؛ لِعَظَمَتِهِمْ عِنْدَ النَّاسِ، لِكَوْنِهِمْ سُكَّانَ حَرَمِ اللَّهِ، فَمَنْ عَرَفهم احْتَرَمَهُمْ، وقد رفع اللّٰه ذكرهم بذلك، وحقه النعم حسن العبادة، ودوام الشكر والإنابة. واللّٰه تعالى أعلم.

١٠٧ - الانضباط المسجدي..!

هـو انضباطٌ جميل، وامتثالٌ قـائم، وهـو انضباط الصلاة، واتصال الحضور، والقدوم المبكر، وإدراك الجماعة، والتأسف على فقدانها أو تاخيرها، يقول سبحانه منكرا على الساهين والغافلين عنها : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون:٤).

أَيْ: الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَقَدِ الْتَزَمُوا بِهَا لكنهم عَنْهَا سَاهُونَ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا، فيقصر ويتقاعس .

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ رحمه الله: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَمْ يَقِلْ: فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ.

أو يؤديها مقصرًا فِي أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشرعي المطلوب، وهذه ورطة كثير من الناس هذه الأيام .

وفي ذلك تشبه بحال المنافقين، جاء في الحديث أنّ رَسُولَ اللَّهِ

صلى اللّٰه عليه وسلم قَالَ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».[1]

فأثبت له الصلاة، ولكنه ساهٍ غافل متكاسل .

فترفع يا عبداللّٰه أن تكون من المصلين الساهين أو المتكاسلين، فتكون قريبًا من طائفة النفاق، الذين لهم صلاة ولكنها زايغة مخففة، مهينة، واللّٰه المستعان .

وهذا يرشدنا الى أهمية العناية بالصلوات، وحمل النفس على الجد فيها، والحرص على سنيتها وادائها في الجماعة، وأن تكون أولى الاهتمامات، وأس القضايا، وعمدة الشؤون، فلا حظ في الإسلام لمن ضيع الصلاة، ولا سعادة لمن باشرها بهوان، أو تعامل معها تعامل السارق الهلوع، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

(١) مسلم (٦٢٢).

١٠٨ - صلاةٌ ونسك..!

من أعظم الطاعات توحيدًا وخضوعًا، وأكثرها تدينا واتباعا، هو ما ذكره اللّه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر:٢). الصلاة والنسك، أَيْ: كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ومن ذلك النهرُ الَّذِي تَقَدَّمَ صِفَتُهُ -فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ صَلَاتَكَ الْمَكْتُوبَةَ وَالنَّافِلَةَ ونَحْرَك، فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَانْحَرْ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الْأَنْعَامِ: ١٦٢، ١٦٣).

وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم يصلي الْعِيدَ، ثُمَّ يَنْحَرُ نُسُكَهُ وَيَقُولُ: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ. وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلَا نُسُكَ لَهُ».

ولذلك استشعر دائما توحيد اللّه في صلاتك، وإراقة الدماء

في قرباتك، واعلم أنها لا تحل إلا للواحد الأحد سبحانه وتعالى، واحرص على التجرد فيها والإخلاص، فهي لله خالصة كاملة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، ومع أنها خطاب لنبينا عليه الصلاةُ والسلام، الا أنها عامة فتشمل سائر الأمة، وختمها الله بما يحفز على الحب النبوي والاتباع (إنا شانئك هو الأبتر).

ومقتضاها تحقيق الحب النبوي ومحبة كل سننه وتعاليمه صلى الله عليه وسلم . فيا قبح من عاداه أو سخر من شرعه وسنته..!

أيْ: مُبْغضَكَ كائِنًا مَن كانَ ﴿هُوَ الأبْتَرُ﴾ الَّذِي لا عَقِبَ لَهُ حَيْثُ لا يَبْقى مِنهُ نَسْلٌ ولا حُسْنُ ذِكْرٍ، وأمّا أنْتَ فَتَبْقى ذُرِّيَّتُكَ وحُسْنُ صِيتِكَ وآثارُ فَضْلِكَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، ولَكَ في الآخِرَةِ ما لا يَنْدَرِجُ تَحْتَ البَيانِ. ويُروى عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: كانَ أكْبَرُ ولَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ القاسِمَ ثُمَّ زَيْنَبَ ثُمَّ عَبْدَ اللَّهِ ثُمَّ أُمَّ كُلْثُومٍ

ثُمَّ فاطِمَةَ ثُمَّ رُقَيَّةَ، فَماتَ القاسِمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وهو أوَّلُ مَيِّتٍ مِن ولَدِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِمَكَّةَ، ثُمَّ ماتَ عَبْدُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقالَ العاصُ بْنُ وائِلٍ السَّهْمِيُّ: قَدِ انْقَطَعَ نَسْلُهُ فَهو أبْتَرُ؛ فَأنْزَلَ اللَّهُ تَعالى: ﴿إنَّ شانِئَكَ هو الأبْتَرُ﴾.

واللّٰهُ تعالى اعلم.

١٠٩ - الاعتزازُ العقدي..!

ديننا دين العزة والاستعلاء، لا دين الوهنِ والاستجداء، يحملك على الصدق والتميز، والحزم والثبات، ويرفض الضعف والمداهنة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦).

فِيهِ مَعْنَى التَّهْدِيدِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ﴾ (القصص: ٥٥) أَيْ إِنْ رَضِيتُمْ بِدِينِكُمْ، فَقَدْ رَضِينَا بِدِينِنَا. وَمَعْنَى لَكُمْ دِينُكُمْ أَيْ جَزَاءُ دِينِكُمْ، وَلِيَ جَزَاءُ دِينِي. وَسَمَّى دِينَهُمْ دِينًا، لِأَنَّهُمُ اعْتَقَدُوهُ وَتَوَلَّوْهُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَكُمْ جَزَاؤُكُمْ وَلِيَ جَزَائِي، لِأَنَّ الدِّينَ الْجَزَاءُ.

هُوَ نَظِيرُ ما تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ يُونُسَ ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمّا أَعْمَلُ وأنا بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١).

وَكَقَوْلِهِ: ﴿لَنا أَعْمالُنا ولَكم أَعْمالُكُمْ﴾ (القصص: ٥٥).

وَلَيْسَ فِي هَذا تَقْرِيرُهم عَلى دِينِهِمُ الَّذِي هم عَلَيْهِ، ولَكِنْ مِن قَبِيلِ التَّهْدِيدِ والوَعِيدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكم فَمَن شاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ إنّا أعْتَدْنا لِلظّالِمِينَ نارًا أحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها﴾ (الكهف: ٢٩).

فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَنهَجٌ إصْلاحِيٌّ يربي على القوة والاعتداد، وهو عَدَمُ القَبُول والرضا بأنْصافِ الحُلُولِ؛ لِأنَّ ما عَرَضُوهُ عَلَيْهِ مِنَ المُشارَكَةِ فِي العِبادَةِ، يُعْتَبَرُ حَلًّا وسَطًا لِاحْتِمالِ إصابَةِ الحَقِّ فِي أحَدِ الجانِبَيْنِ، وتنزلاً معهم على سبيل الملاينة، فَجاءَ الرَّدُّ حاسِمًا والخطاب غليظا، لِأنَّ فِيهِ مُساواةً لِلْباطِلِ بِالحَقِّ، وفِيهِ تَعْلِيقَ المُشْكِلَةِ، وفِيهِ تَقْرِيرَ الباطِلِ، إنْ هو وافَقَهم ولَوْ لَحْظَةً.

وممكن التنازل في الأمور الدنيوية، وأما الأمور الإيمانية والعقدية فلا يجوز فيها التنازل، لانه مناقض للإسلام وعقيدته، ويورث الضعف والخذلان، ويغري السفهاء بالتخلي والانفكاك

السلوكي والفكري، والله المستعان . وقد قال تعالى : ﴿وَدُّوا لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ (القلم:٩). لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك، وقيل: تصانعهم عن دينك فيصانعونك . وقال مجاهد: لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك .

فالنص هنا يحسم كل صور الضعف والمداهنة، ويعلن العزة والتمايز الإيماني، والله الموفق.

١١٠ - تسبيحٌ واستغفار..!

حق البشائر والانتصارات الثناء على اللّه تعالى وتعظيمه، وحمده وتسبيحه، كما قال سبحانه بعد ذكر النصر، والأفواج المحتشدة لهذا الدين واستبشارها بنعمة اللّه عليها ...

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر: ٣).

فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، ويظهر العظمة له والإجلال، وفيه الجمع بين تسبيح اللّه المؤذن بالتعجب مما يسّره اللّه له، مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى، التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها، بعد افتراء طويل، وتكذيب عريض.

وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر

لهذا الدين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد اللّٰه واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، واللّٰه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقد وُجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين، وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر اللّٰه مستمرًا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دينٌ من الأديان، ودخل فيه، ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر اللّٰه ما حدث، فابتلاهم اللّٰه بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل.

ومع هذا فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة اللّٰه ولطفه، ما لا يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قد قرب ودنا، قال الحسن رحمه اللّٰه : أعلم اللّٰه رسوله صلى اللّٰه عليه وآله وسلم أنه قد اقترب أجله فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح،

فكان يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي إنك أنت التواب». وعاش صلى اللّه عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين.

فأمر اللّه لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات اللّه وسلامه عليه. فكان يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: « سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي».

١١١ - المال المكتسب..!

إنما ينفعك المالُ اذا كان في طاعة اللّه، وفي وجوه الخير، وفي مبرات وصلة، وفي نصرة وكرامة...! وأما المجموع تفاخرًا واستكبارا، وعشت به بخيلا لئيمًا، فستفنى ويفنى معك، ولم يصد عنك الحساب، ولا الجزاء المنتظر، حين حضورُ الساعة، والموعد المحتوم...!

ولذلك سيكون الأمر في القيامة كما قال المولى الحكيم : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد: ٢).

(مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) أي ما دفع عنه ما حل به من التباب، ولا أغنت عنه الأرباح والجاه شيئا، سواء ماله، وما اكتسبه واضعفه بعد ذلك ..! خلالا لما يعتقده الناس من نفوذ المال، وقوة الثروات، فهي قد تخفف في الدنيا، ولكنها لا تجدي في الآخرة، بل وليست قادرة على صناعة السعادة في حياتهم الدنيا ...!

وفي هذا درس لنا أن لا نغتر بالمال، وأن يكون جمعهُ من طرق

حلال، وتوضع في الحلال والمنافع، ويجعل سلالم الى اللّه، وقناطر في الخيرات، فقد قال صلى اللّه عليه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح). وفي صحيح البخاري عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول. وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يُعِفَّه اللّه، ومن يستغنِ يُغْنِه اللّه) .ويروى عن وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْذَرَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم عَشِيرَتَهُ بِالنَّارِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْدِي نَفْسِي بِمَالِي وَوَلَدِي، فَنَزَلَ: مَا أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ.

وكل زخارف الدنيا وزينتها لن تغني عنك من اللّه شيئا، اذا قصرت وانحرقت، وسلكتَ غير الجادة، فجدد صلتك باللّه، واجعل نعمه طاعةً له، واحذر الاعتزاز الدنيوي، أو الفخار المالي، واعلم أنه لن ينفعك أو يحميك إلا مالك الصالح وعملك الفالح، واللّه الموفق .

١١٢ - اصمد إلى الصمد..!

كلما ضاقت بك الدنيا، أو اشتدت عليك المحن، فقد فتحت لك فرجة في الدعاء، فاللّه هو المجيب الصمد، والكريم الأحد، الذي لا يجلب النفع سواه، ولا يدفع الضر غيره سبحانه وتعالى، ولذلك يلتجئ إليه الخلائق ويصمدون في دعائهم وحوائجهم، كما قال سبحانه :

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص:٢)، أَيِ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَاجَات، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣). قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي النَّوَازِلِ وَالْحَوَائِجِ.

فافزع الى اللّه داعيًا راجيًا، ومنطرحا باكيا، تقصده بصدق، وتصمد إليه بضراعة وابتهال .

قال في الحديث الصحيح: (إنّ اللّه حيِيٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرّجلُ إليْهِ يديْهِ أن يردّهما صفرًا خائبتينِ).

واستطعامُ حلاوة معنى هذا الاسم يحملُنا على كثرة الدعاء، وتحقيق الدعاء للواحد الصمد، وتعليق الآمال به سبحانه وحده، كما قال : (فادعوا اللّٰه مخلصين له الدين).

وقد ورد عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي اللّٰه عنه : الصمد هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وليس كمثله شيء، سبحان اللّٰه الواحد القهار.

وإنما صمدت الخلائق إلى من يملك العِز والمجد، وبيده النفع والضر، وإليه الملجأ والمفر، وبيده ملكوت كل شيءٍ، يحكم لا معقب لحكمه، يعز من ياء ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير .

١١٣ - توقي الحساد..!

لا يأمرنا القرآن الكريم بالتعوذ من شر الحساد، إلا بسبب تأثيرهم، وانقلاب الأحوال، وشدة وقيعتهم، ولذلك ندبنا الى الاذكار والأوراد، ومن ذلك المعوذات كالفلق، قال تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥).

والحاسد، هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله .

ذكر اللّه سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الإستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندارجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره وهو الغاسق والنفاثات والحاسد، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر، وهو أول ذنب عصى اللّه به في السماء من إبليس وفي الأرض من قابيل، وإنما عرّف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه لأن كل نفاثة شريرة، فلذا عرفت النفاثات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات...!

ولذلك حصنك تجاههم الذكر وحسن التوكل، ومخرج الحسدة، كظمه ومجاهدة النفس بنبذه، لانه من أسوأ خصال المسلم، وقد

قالوا: (كلُّ الناس أستطيع أن أرضيه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها)

وقال ابن سيرين رحمه اللّه : (ما حسدتُ أحدًا على شيء من أمر الدنيا؛ لأنَّه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على الدنيا، وهي حقيرة في الجنة؟! وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار؟!).

١١٤ - الوسواسُ الخناس..!

هنا استعاذة عظيمة، وعدو خطير، ومرجفٌ تربص بغالب بني ادم، ولا يكاد يسلم منه إلا القليل، قال عز وجل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ (الناس: ٤).

فهو العدو الحقيقي، والضال المضل، والعنصر الفاتك بالبشر وقلوبها وأمانيها.

وهو الشَّيْطَانُ الجَاثِمُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ. وقيل: أَنَّ الشَّيْطَانَ، أَوِ: الْوَسْوَاسَ يَنْفُثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الْحُزْنِ وَعِنْدَ الْفَرَحِ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَسَ.

وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس، فيحترز منه.

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يسوس الشيطان إلى العبد.

وفي الحديث : قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: (ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول اللّٰه ؟ قال: وإياي، إلا أن اللّٰه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير).

وفي رواية: « ... وقد وكِّل به قرينُه من الجنِّ وقرينُه من الملائكة».[1]

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره، أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان على دفعه.

فينبغي له أن يستعين و يستعيذ ويعتصم بربوبية اللّٰه للناس كلهم.

(١) رواه مسلم (٢٨١٤).

وأن الخلق كلهم، داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها.

وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. أفاده ابن سعدي رحمه الله في تفسيره.

وفي فضل هاتين السورتين قال في الحديث: عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » وَ « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ».[1]

قال ابن القيم رحمه الله : والمقصود: الكلام على هاتين

(١) مسلم(٨١٤).

السورتين. وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما. وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيرا خاصا في دفع السحر والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس، فنقول والله المستعان:

قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول.». وقال: «والأَدْعِيَةُ والتَّعَوُّذاتُ بِمَنزِلَةِ السِّلاحِ، والسِّلاحُ بِضارِبِهِ، لا بِحَدِّهِ فَقَطْ، فَمَتى كانَ السِّلاحُ سِلاحًا تامًّا لا آفَةَ بِهِ، والسّاعِدُ ساعِدُ قَوِيٍّ، والمانِعُ مَفْقُودٌ؛ حَصَلَتْ بِهِ النِّكايَةُ في العَدُوِّ، ومَتى تَخَلَّفَ واحِدٌ مِن هَذِهِ الثَّلاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأْثِيرُ، فَإنْ كانَ الدُّعاءُ في نَفْسِهِ غَيْرَ صالِحٍ، أوِ الدّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ ولِسانِهِ في الدُّعاءِ، أوْ كانَ ثَمَّ مانِعٌ مِنَ الإجابَةِ، لَمْ يَحْصُلِ الأَثَرُ».

فهرس المحتويات

إصدارات المؤلف :

صدر له أكثر من (١٦٠) كتاب منها :

- سلالمُ العلمِ ومدارجُ الفهم .
- الخطبُ الحديثية .
- الأربعون المعالي.
- الأربعون الأكثرية
- موقظاتُ التدبر القرآني.
- نثار العلم .
- من جماليات السيرة النبوية.
- محائليات (شعر).
- اليَراعةُ الرمضانية .
- مواقفُ علمية للأئمة الأسلاف.
- طلعةُ الشمس (سنن نورانية).

- روائع الكلم النبوي .
- وكلها من (دارتكوين).
- طلائعُ السلوان - دار ابن خزيمة .
- نسماتٌ من أم القرى .
- مواتُ المروءة (شعر).
- وطن ومنن (شعر).
- الطِّلاب الأعظم (شعر)
- فهزموهم بإذن اللّٰه (شعر).
- توهجات النيل(شعر).
- كورونا وليمونا (شعر).
- مدائن الألباني.(شعر).
- عاصفة الحزم (شعر).
- اللؤلؤ المنظوم في تقريب العلوم .

- سلسلةُ أربعينيات حديثية متنوعة .
- أزاهير الروضة
- شجن المنابر
- قواعدُ قرآنية لفهم الدعوة .
- مقدمات التغيير النبوي .
- من جماليات السيرة .
- الاحتفالُ بالسبع الطوال .
- محاسنُ التزيين بمعاني المئين
- حسنُ التداني من لبّ المثاني .
- الغصنُ المكلل من معاني المفصل .
- شجنُ المنابر وهتنُ المحابر.
- مسامرات أدبية على أنغام المتنبي.
- اغتنامُ الدرر من سورة العصر.

- النسيمُ البحري من أسرار رب اشرح لي صدري.
- متعةُ الهيمان من أسرار ثلث القرآن.
- سيدةُ الآيات وفريدة الهبات .

للتواصل :

hamzah10000@outlook.com

